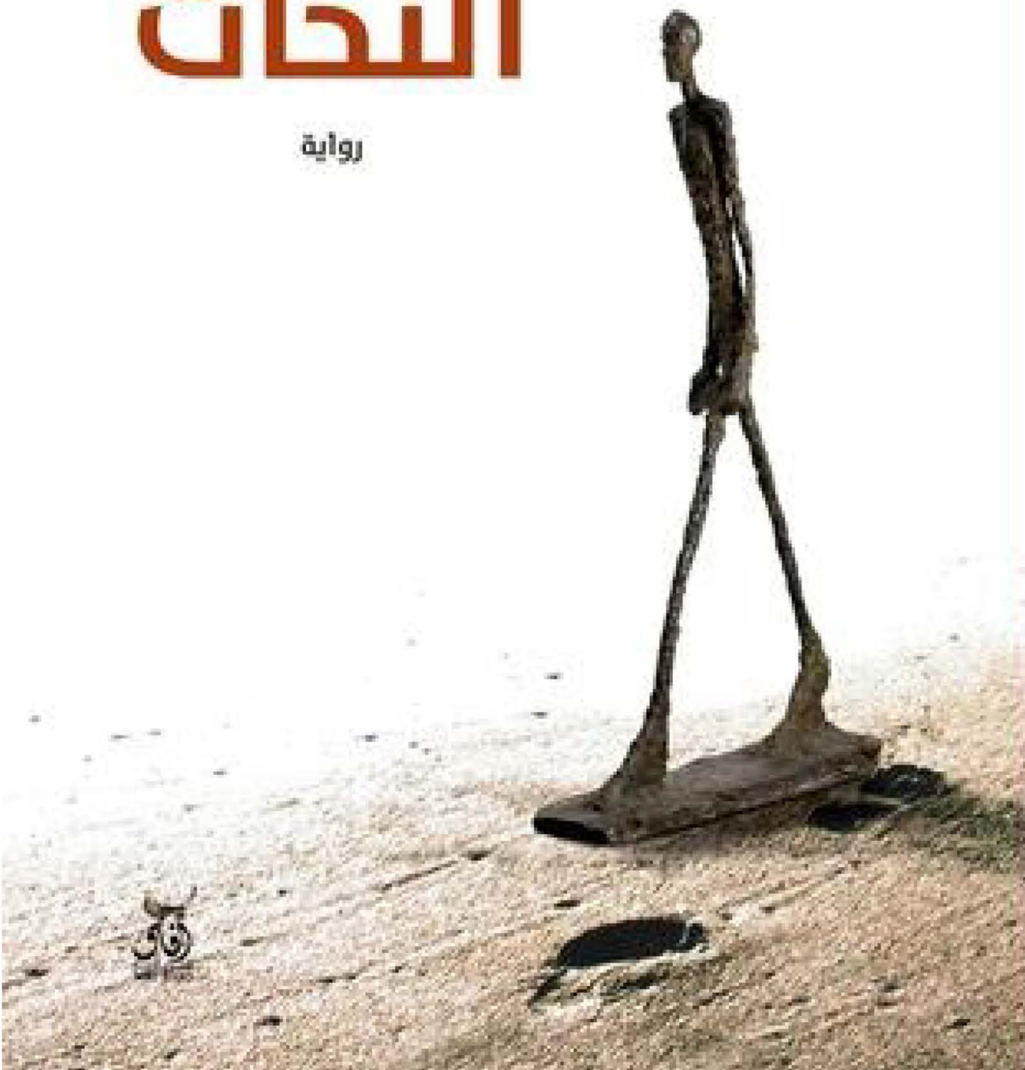
أحمد عبد اللطيف

كتاب النحّات

رواية



- **Author** : Ahmed Abdul Latif
- **Title**: The
- **First Edition**: 2013
- **Cover Design by**: Afaq

- **المؤلف:** أحمد عبد اللطيف
- **العنوان:** كتاب النحّات
- **الطبعة :** الأولى 2013
- **تصميم الغلاف:** آفاق

رقم الإيداع:
٢٠١٣ / ؟؟؟؟؟؟
الترقيم الدولي : ISBN
978 - 977-6148-؟؟-؟؟

Afaq Bookshop & Publishing House

75 QASR – ALAINI ST., in Front of Dar Al-Hekma, - CAIRO – EGYPT
Tel: +202-2795-3811 Fax: 00202-2795-4633
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com
٧٥ ش القصر العيني – أمام دار الحكمة – القاهرة – جمهورية مصر العربية
ت : ٢٧٩٥ ٣٨١١ فاكس: ٢٧٩٥ ٤٦٣٣

أحمد عبد اللطيف

كتاب النحَّـــات

رواية

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

عبد اللطيف، أحمد.

كتاب النحَّات: رواية

أحمد عبد اللطيف – ط1 القاهرة –دار آفاق للنشر والتوزيع – 2013

208 ص، 20 سم.

رقم الإيداع   22939 / 2012

الترقيم الدولي   0 – 84 – 6148 – 977 – 978

1 – القصص العربية القصيرة

أ – العنوان

إلى إيمان، كي تبتسم

«الناس نيام فإن ماتوا انتبهوا»

قول محمدي

«لست ضد آلهة الجمهور، بل ضد فكرة الجمهور عن الآلهة»

سقراط

من المحفوظ في صدور الرجال والنساء ومن بعض الصحف والدفاتر والأوراق المتناثرة جمعتُ هذه الحكاية الطويلة واختصرتها دون إخلال برونق الحوادث متخلياً عن التطويل الذي قد يصيب الفانين بالملل وعن التبسيط الذي يجعل من الحكاية العظيمة حادثة عابرة مستخدماً في سردها عبارات بسيطة ولغة مضبوطة ومحكمة حتى يروق لقراءتها بال كل قارئ.

كتبتُ هذه الحكاية بأحبار مختلفة وظننتُ في ذلك فرادةً ولفتاً واجتهدتُ قدر استطاعتي ليكون تعدد أصوات الرواة إلماماً بجوانب الحكاية ويكون إيقاع لغتهم من بطيء لمتعجل ومن سرد أحداث لمتأمل فيها ومن تجريد لتجسيد تنوعاً يجذب الفانين حتى العبارة الأخيرة فيتم بذلك المقصود منها وهو ليس رسالةً ولا توجيهاً بل سحراً يتسرب عبر الأوردة لعقول خاملة فأرجو المعذرة ممن غض طرفاً عن الهفوات إذ ليس كاملاً إلا الله وحده وهو حسبي ووكيلي.

السفر الأول

اليوم الأول بعد السادس

في الصباح، أستيقظ متعباً وكسولاً كأنني كنتُ أنقل في منامي صخوراً من أرض لأخرى. أتثاءب وأتمطع كقط تحت شمس دافئة، وأنهض لأقطف ثمرة تفاح وآكلها وأنا أقترب من التماثيل التي صنعتها في الأيام الماضية لتملأ فراغات وحدتي. أتحسس بيدي المنحوتات الصغيرة المصنوعة من الطين والتي لم تجف بعد، وأنظر إليها بحنين وأفكّر، صور مصغرة لراحلين عاشوا في عالمي الأول، وغابوا في ظلمة الليل أو مع ضوء الفجر الأول. انتهيتُ من تشكيل أجسادهم من جديد، مستحضراً صورهم المحفورة في ذاكرة غائرة، لأشعر، ربما للمرة الأولى، بمتعة الخلق. ترددتُ قليلاً أمام إصلاح العيوب الخلقية الأولى، من أنف طويل أو أفطس، من شعر مجعد أو ناعم، من ظهر أحدب أو مستقيم. غير أنني توصلتُ في النهاية إلى أنه ما من صورة أجمل من الصورة الأصلية بكل ما فيها من نقصان.

أتساءل وأنا أتجول حول المنحوتات، كيف يمكن أن نرى الكمال في النقصان السابق؟ كيف يفرض الغائبون سطوةً لم تكن لهم في وجودهم؟ التماثيل المرصوصة بجوار بعضها يُمكن أن تلخّص حياتي السالفة، رغم

أن عالمي كان أكثر زخماً بكثير. الذاكرة في نهاية الأمر تحتفظ بما تريد دون إرادة منا. ليس لها شروط يمكن التقيد بها. مشهد قصير قد يغزونا ويحتل مكاناً بارزاً دون أن نستطيع تجنبه، ومشاهد طويلة قد تغيب للأبد. عابرون يحفرون أمكنتهم بداخلنا بينما مستقرون يسقطون في هوة النسيان. تحمل الذاكرة كلمات لا نعرف أصحابها، أما الأصحاب الذين لا تبقى لهم كلمات، فأغلب الظن أنه محكوم عليهم بالفقد الأبدي. أظن أن أثر التذكُّر، على الأقل في حالتي، له صلة بقدسية الكلمة. للكلمة سحر من وقع تحت أسره لا يعرف الخلاص.

أنظر لتماثيلي الطينية وأفكر، ما من خلود لها ما لم تكن مصحوبة بحكايات عنها. التمثال الذي لا يحمل صاحبه حكايةً آسرة سيكون محض حجر أصم. النحت والكتابة وجهان لنفس العملة، جسد وروح. ما من ذكرى تأتي إلا بصحبة عبارة. كلنا، في نهاية الأمر، محض عبارة مستقرة في ذهن أحد. لهذا جئتُ إلى هنا بأوراق سأخط فوقها حكايات لأصحاب صوري. لن أستطيع، ولا أريد في الحقيقة، أن أحكي حيواتهم، سأثبّتُ عينيّ فحسب على المشاهد التي كلما ذكرتهم جاءتني، حتى لو كانت محض حكايات خيالية.

نهار الجزيرة مضيء جداً ودافيء. كل النهارات هنا متشابهة، والليل كذلك، غير أن اليوم تحديداً يحمل أسراراً خاصة، فصولاً أربعة متعاقبة، وشمساً مترددة. الأيام الماضية كانت تكراراً للحظات بعينها، وبين يوم وآخر كان الفارق ضئيلاً، يكاد لا يُلاحظ. خطوة الزمن إيقاعية لحد أتخيل

معه أنني في نفس اليوم الذي وصلت فيه إلى هنا، رغم أن ذلك مخالفاً للواقع على ما أظن. التفاصيل الصغيرة إشارات للاختلاف. لهذا، أكتب الآن يومياتي في الجزيرة، وأخط حكايات الصور. كل ذلك وأنا أنتظر أن تجف وتصير متماسكة.

اليوم الأول

وصلتُ إلى الجزيرة بواسطة قارب صغير بمجدافين، وضعتُ فيه ثياباً يليق بحياتي الجديدة التي أبحث عنها: برانس وجباب وعباءات، وألبسة وسراويل، ونعالاً مريحة. بعض الكتب والدفاتر والأوراق البيضاء، مع بعض الرسومات التي قد تصير في يوم ما منحوتات. كان شعرى الطويل مغبّراً وأشعث، وكذلك لحيتي التي اشتعلت بشعيرات بيضاء، وأثر رمال الصحراء، التي عبرتها لأصل إلى النهر، لا يزال في قدميّ وبين أصابعها.

أشد ما كنت أخافه ألا يحتمل القاربُ الجوالَ الكبير الذي يضم صلصالاً انتويتُ سلفاً أن أصنع منه تمثالاً لشيء لم أتبينه في البداية، وبعض أدواتي التي استخدمها في النحت كالأزميل والمطرقة. احتمل القاربُ ما أحضرته معي، ووصل إلى قِبلتي خلال زمن لم أدركه. كانت الشمس برتقالية، تودّع العالم. وكانت الأسئلة التي تؤرقني بلا جواب. مَنْ أحضر القارب إلى الضفة. كيف سأبقى هناك على قيد الحياة بلا مؤن أحملها معي. بلا بشر. بلا شيء. فكرتُ أنني ربما أستطيع التخلي عن عالمي بأكمله دون أن أتمكن من التخلي عن أسئلتي. الإجابات نفسها تولّد أسئلةً أخرى. مع وصولي لعالمي الجديد، أدركتُ أنه كان بانتظاري،

معداً لحياة، رغم خشونتها، تناسبني تماماً. هل سكن هذه الأرض أحدٌ قبلي. سأرى.

أتجول بالجزيرة. رحبة بما يكفي. تشبه بستاناً، ومضاءة بقمر مكتمل. نصفها مزروع بشجرات ونخيل، ونصفها الآخر تراب بكر. أفكّر أولاً في أنني بحاجة إلى مسكن، كوخ مسقوف سيكون كافياً. أختار مكاناً في المركز، وأقيم من جريد النخل أربعة حوائط وسقفاً، ونافذة واحدة وباباً. أترك أشيائي بداخله وأخرج للعراء، فأستريح قليلاً على الأرض، بين شجرات ونخلات لا أعرف من زرعها. أشم رائحة التراب وأشعر بحنين إليه، وأفكّر، لو كان لي أمنية واحدة أود تحقيقها، لوددت أن أشاهد نفسي حفنةً من التراب تمتزج بالماء(هل كان ماء بحر أم ماء نهر؟) ثم أُشيَّد تمثالاً كاملاً منصوب القامة تُنفخ فيه الروح، فيضخ القلبُ الدمَ لبقية الجسد، وترى العينان في الحال ويُثقَب السمع وتُشق الأنف ويبدأ المخ في إدراك ما يحدث. كم أريد أن أشاهد نفسي من خارجي، سائراً، نائماً، جالساً، مستغرقاً في صور تدور بذهني. ماذا شعر آدم عندما وجد نفسه فجأة محاطاً بوجوه لا تشبهه، دون أن يدري أي يد قد خلقته؟

أنتبه إلى أن بالجزيرة نباتات كثيرة، ولم أر حيواناً واحداً. خطر ببالي أن أصنع منحوتات صغيرةً لدجاجات وبط وأوز. سأجعلها تملأ العالم حركة رغم سكونها، وتمنحه طبيعية أكثر مما هو عليه. سأمارس هنا حرفتي، بصناعة تماثيل لوجوه محفورة في ذاكرتي، أستعيد بها الحياة الأولى حتى لا أعيش بذاكرة مفقودة. أستوي في جلستي وأقرر التوجه إلى الكوخ، وفي طريقي أسترجع اللحظات التي كنت فيها أعود إلى البيت. كان بيتاً

كبيراً به حديقة متصلة، مكشوفة، أستغلها كورشة أصنع فيها منحوتات حجرية وطينية. وأقضي بها ساعات الليل التي كانت تطول يوماً بعد الآخر. البيت نفسه كان رحباً بشكل لا يمكن تحمّله، ففي البيوت الواسعة تتمدد العزلة، تصير، دون أن ننتبه لذلك في البداية، حيواناً بأذرع لا حصر لها، أينما تجولنا تطولنا. وأحياناً، نشعر أن البيوت واسعة فقط لأن الأركان التي كانت مشغولة صارت خالية. الألم يكمن في أن الراحلين يتركون لنا أماكنهم، وكلما زادوا زادت، واتسعت. ربما لهذا سأستريح في الكوخ الجديد، أظنني سأشعر بداخله بالدفء، وسيكون، في أسوأ الأحوال، أقل قسوة من بيتي القديم.

أفتح جوالي وأسحب منه أغطيةً أفرشها على الأرض، وأفكّر في صنع سرير عندما أستيقظ. أنتبه أيضاً إلى أنني صنعتُ إطاراً للباب وللنافذة دون أن أصنع لا باباً ولا نافذة. يبدو أنني سأعمل نجاراً أولاً، أقول وأبتسم. غير أنني، في هذه اللحظة تحديداً، يهاجمني النوم فأستسلم له.

أرى شوارع واسعةً جداً وخالية إلا من مقاصل وسلالم وبالوعات وشرفات، وبينما أسير وحدي من شارع لآخر، مرعوباً من المشهد الضبابي، تنشق الأرض فجأة ويخرج منها رجال بطونهم منتفخة ويسيرون على ظهورهم، رجال كثيرون حد أنهم يملؤون الشارع العريض الذي أتوقف فيه، ولا يتركون مساحة للمارة ولا حتى فوق الأرصفة. أتسمّر في مكاني وأفكر كيف يمكنني أن أخرج من هناك، فأتعلق على إفريز نافذة مخافة أن يخرج من تحت قدمي آخرون، فيظهر في الشرفات رجال ضخام

الجثة، ينزلون بأقدامهم على البطون المنتفخة ويسيرون فوقها بخطوات عسكرية، فتنفجر بشكل متتابع، وتطرد مياهها حد أن الشارع يتحول إلى بحيرة، وتقترب لتطولني. أتسلق الحائط لأصل إلى شرفة، ومن هناك أرى رقاباً معلقةً بالمقاصل، ورقاباً أخرى تطير بالسيوف. الخوف يملؤني حد أني أقرر الهرب، فأقفز في مياه البحيرة وأركض، وعندما أصل لشارع آخر أنتبه إلى أن قدميّ مكسيتان بالدماء، فأنظر خلفي لأجد البحيرة حمراء ولزجة. أفتح عينيّ لأجدني جالساً أمام الكوخ، فأعود للنوم من جديد.

اليوم الثاني

أفتح عينيّ على جدران من جريد النخل، والشمس تعبر إليّ من خلال فتحة النافذة. جسدي المسجى على الأرض يمنحني شعوراً بالوقوف على حافة الصحو وخواء العالم. الفراغ وحده يشغل مخدعي، والصور المتتابعة تقتحمني في لحظاتي الأولى لاسترداد الحياة. أفكّر، وأنا أراقب الجزيرة من خلال إطار الباب، في أن اليوم الذي يحدث فيه الفراق ليس أهم يوم في تاريخه، بينما اليوم التالي هو بداية المأساة. في اليوم الأول نتلقى الخبر، وفي اليوم التالي ندركه. في البداية نفكّر كيف سيكون الغد بعد ما حدث، ثم نبدأ في ممارسة ما ينبغي أن يحدث. أنهض من مكاني وأخرج لأتنفس هواء الصباح. أتصور البيت القديم وأرسمه بعصا على الأرض. وداخل رأسي، أسير في مكان سكنته لسنوات طوال فأدرك أن كل شيء صار خاوياً. تتكاتف كل الصدف لتشكّل صورة اليوم التالي: يشتد البرد، تقوم عاصفة، تكتسي السماء بغيمة، أشعر بجسد مهترىء. الخواء الداخلي، دائماً، يتجسّد في النباتات والأشجار، يترك علاماته في كل تلك الأشياء المحيطة.

أتصور أنني أشرع في حياةٍ جديدة، أو ربما في موت من نوع خاص. أتحرّك من الكوخ كما الشبح، أسمع أصواتاً اختزنها الهواء، وتتردد

في أذنيّ كلمات كانت تقال حتى أيام مضتْ. أجيب على سؤال معلّق تكاسلت ذات يوم في الرد عليه، وربما تقع على خدي قبلة أهملتها فظلت دين عليّ. والرائحة التي كنتُ أنفر منها، أشتاق الآن إليها. أتشممها في زجاجة ماء، في صفحات كتب، في صلصال، في منديل، في عصا، في قطعة ثوب. في زجاجة عطر لم يتبق منها إلا القليل فاخترت الاحتفاظ بها للأبد.

نهار اليوم الثاني هو أقسى النهارات التي قد تواجهني في حياتي الجديدة. أرى فيه الصور حيةً تتحرك أمامي. صوت الضحكات المجلجلة التي غابت منذ زمن تحيط بي، ونهنهة بكاء طالت في أيامها الأخيرة تطاردني حتى في مناماتي. أقف على ضفة وأنظر في الماء. لا أرى صورتي، غير أنني أسمع تلاطم القطرات. أي صورة يمكن أن أكون عليها الآن؟ أتحسس وجهي الذي أظنه متغضناً، وبين الخطوط يسير بشر شكّلوه مع خطوات الزمن. أتساءل وأنا أجلس أمام صفحة ماء مضطربة، كيف لا يكون لألم الإنسان عمر؟ كيف لا نبلغ سناً يكف فيه الألم عن أن يحاصرنا؟ أو نبلغه فيكون الألم على مسافة منا؟ أقطف ثمرة تفاح وآكلها. ربما تكون نفس الثمرة التي أكلها آدم وهبط بذنبها إلى الأرض. آكلها كاملةً، فالوقوف في المنتصف يخلّف الندم. ثمرة آدم المحرّمة أُحِلتْ لأولاده، مثلما حُرّم القتل على قابيل وأُبيح لنسله.

تنتصف الشمسُ السماءَ بينما أقطع فروع شجرة عريضة لأصنع منها باباً ونافذة لكوخي. بعدها أتجول في الجزيرة لأعرف حدودها فيصيبني التعب

قبل أن أصل لنهايتها. أنزل إلى النهر وأسبح، أتخيل أنني بذلك أتخلص من كل ما أحمله على ظهري، رغم معرفتي أنني لا أريد التخلص من شيء. أتجفف تحت الشمس، وألجأ إلى بيتي. أسحب ورقات بيضاء وأرسم صوراً للطبيعة. وفي لحظة ما، أجمع بعض الطين وأصنع منه عصافير.

اليوم الثالث

تسرّب إليّ الملل. أنظر حولي فأرى عالماً محاطاً بالماء من كل الجهات وحول الماء صحراء لا نهائية. في ساعة شقشقة الفجر الأولى أسير بين جنبات الجزيرة المنعزلة، وأتأمل على مهلٍ الشجرات الباسقة والنخل الشامخ. أتوقّف أمام زقزقات عصافير مختبئةٍ في أعشاشها(لم أشهدها إلا اليوم)، وأرى بعضاً منها ينتقل سريعاً من غصن إلى آخر. بدتْ لي السماء محمّلة بأمطار تود لو أفرغتها، وبدتْ شجيرات الزهور والفواكه المتراصة على استعداد لتلقيها. كان العالم منسجماً جداً، كحروف موسيقية في لحن عظيم، رغم ذلك أحس أنني دخيل على هذا اللحن. أنا وحيد في هذه الأرض، أهمس وأواصل تجولي، حاملاً على ظهري أعوامي الأربعين. أفكّر أن الحياة على ما هي عليه لا يمكن أن تدوم، ينقصها شيء. عندما يتسرّب التعب إلى قدميّ، أستلقي على ظهري، أتمدد، ناظراً لسماء السادسة صباحاً الصافية، وأتساءل، ولماذا يجب أن تستمر الحياة. تمر بخاطري صورة من العالم الأول، كنت طفلاً شقياً يركض حافياً فوق رمال شاطيء، تسابق خطواته الأمواج المتعاركة، يستقبل الهواء برئتين مفتوحتين وقلب سليم، ينال منه يأس الوصول للمنتهى، فيحفر حفرة يكوّم فيها جسده الضئيل، أو يصنع بيتاً يلتمس فيه

الدفء الرمزي، وفي الحالتين لا تتوقف الأمواج في لحظات نشوتها عن تحريك سكونه.

ترسل لي النخلة التي أرقد تحتها عدة بلحات، أفركها بيدي وآكلها شارداً. أفكّر أن الطبيعة أكرم مما نتخيل. أدخل كوخي، أتمدد على الأرض. وأعرف يقيناً أن الحياة في العالم الجديد سيسودها الملل لأجل غير معلوم.

اليوم الرابع

الصباح هادىء جداً. ارتحتُ ما يكفي. أفتح عينيّ على عالم جديد، وأشعر بأني تخليتُ عن كل شيء وصرتُ حراً، مولوداً جديداً يسطّر بيديه قدره. ربما ليس بوسعي أن أمحي ذكرياتي، بل ولا أود ذلك، لكن بيدي أن أكتب أيامي القادمة. أستغل أن الصباح مشمس فأنزل إلى النهر وأسبح. أصير سمكةً تخترق قطرات الماء بمرونة، وأعتليها بظهر مسترخ. أفكّر، أنا لم أصنع من قبل تمثالاً لسمكة ضخمة، وكأنني اكتفيتُ برسمها على ورقة في سنوات الطفولة البعيدة. أقرر أن تكون السمكة عمل اليوم، بل عدة سمكات. ليس حسناً أن نخلق كائناً منفرداً وأن نكتب له العزلة كمصير حتمي، حتى ولو كنا على يقين أننا، سواء أردنا ذلك أم حاربناه، سنموت وحيدين.

أجفف جسدي وأستمتع بشمس الصباح. وعند الظهيرة، أتحرك وأحضر عدداً من الألواح الخشبية، وأستقر على المكان الذي سيصير ورشتي من الآن. أختار عمق شرق الجزيرة تحديداً، وأحفر في التربة اللينة بفأس عثرت عليه بالصدفة، وأجمع المادة التي أصنع منها منحوتاتي.

اليوم الخامس

رأيتُ في منام الليلة السابقة كل الذين مروا بحياتي. لا أدري كيف استطاع محض حلم أن يلخّص أربعين عاماً في لقطات خاطفة. أبي يحمل حقيبةً على كتفه ويسير في طريق مضبب. أخي يجلس أمام مرآة ضخمة. أمي تركض عاريةً وحافيةً وتُنادي بأسماء أعرفها دون أن ينتبه لها العابرون. جدتي تطل على الشارع من نافذة. زوج أمي يمسك بيده طفلاً صغيراً كنته ويقف تحت خشبة مسرح. رفيقتي تقف على باب بيت قديم وتودّعني دون أن أنظر إليها. أجلس على ركبتيّ في أرض خالية وأعبيء التراب في أجولة. رجال معلقون في مقاصل. آخرون يمدون أيديهم إلى البحر ويستخرجون حيتاناً، ويرفعونها إلى الشمس ليشووها. أجراس كنائس ورنين أذان يتداخل ضجيجهما. استيقظ مرهقاً كأنني كنت أركض.

لا أسمع في الجزيرة سوى صوت أنفاسي ودبات قدميّ، وزقزقات طيور. أحمل معي، دون إرادة مني، ذاكرة تتزاحم فيها المشاهد والعبارات. يبدو لي الكون وهماً.. محض أشياء مجردة. أفكر، لو صحوتُ ذات يوم دون أن أتذكر ما مضى، سأتيقن أنني بلا وجود، أنني أسبح في العدم. لا شيء يربطني باليوم إلا البارحة. ولا شيء يربط اليوم بالغد إلا ذكريات.

الحياة يوم واحد طويل، كان يُمكن أن يكون يوم سبت وينتهي الأمر.. غير أن الرغبة في التغيير أوهمتنا بالاختلاف.

أجلس على حافة الجزيرة وأضع قدميّ في الماء. أنا الآن في البر والبحر معاً. قدماي همزة الوصل بين عالمين مختلفين. أي شيء يشبه القدمين في هذا الوضع إلا الذاكرة؟

أقطف ثمرة تفاح زرعها غيري لآكلها أنا(هذا المكان يجمع ثمرات الصيف والشتاء بشكل ملفت، كأنه لا يؤمن بتعاقب الفصول). أفكّر أثناء ذلك أن أشرع في جمع التراب من جديد.. وأن أختبره في المكان الذي اخترته لأصنع تماثيلي، من الذاكرة. تمثالي الأول سيكون لأمي، والثاني لأبي، والثالث لزوج أمي، ثم أصنع تماثيل أخرى لأناس لفتوا انتباهي في الحياة الأولى: رجل القضيب ورجل البرميل وبائعة اليانصيب. سأبدأ بالراحلين منذ زمن طويل لأستعيدهم بيدي، واستحضرهم بذاكرتي. بعدها، أصنع من تركتهم حديثاً، هؤلاء العابرون الذين تركوا عباراتهم في أذنيّ.

لا ينبغي أن تكون تماثيلي صورة طبق الأصل من الحقيقة. ما هي الحقيقة في واقع الأمر؟ ستكون ما تركوه فيّ من أثر. ستختلف الأحجام بحسب الذكرى. وسألحق بكل تمثال حكايته.. أثبّتها تحت قاعدته في أوراق مكتوبة بخط واضح. أعلم أنه من دواعي الغرابة أن أصنع للآخرين خلوداً دون أن أصنعه لنفسي. سيكون خالقُ التماثيل الوحيدَ بلا تمثال.

اليوم السادس

أشكّلُ تمثالَ أمي بيد ثابتة وقلبٍ مرتجف. أخلط مع الطين ذكريات تعتليها ضحكات نادرة وشرود دائم. أشق بخجل الثقبَ الذي خرجتُ منه للعالم، وأكوّر النهد الذي أرضعني. أصنع جسداً متماسكاً ومنتصباً. أجعل أمي في أوج جمالها. شابة عشرينية كما يليق بها. أنزع عن وجهها خطين ظهرا حول أنفها في صورتها الأخيرة. لأمي نظرة زرقاء، خاصة، كأنها تستشرف المستقبل أو تنظر إلى العدم. رموش تشبه أبواب مدينة مخترقة. حاجبان سوداوان، متصلان، طويلان فلا يتناسبان مع عمرها القصير. وأنف مستقيم، صغير، ينظر لأسفل في حياء فيداري فتحتيه. المسافة بين الفم والأنف ضيقة، غير أنها مرسومة بعناية، والشفة العليا قصيرة. طابع الحسن في ذقنها يمنحها ريفية، رغم أنها لم تر إلا المدينة. بين الأذن والأنف أرض مستوية، بها نتوء مستدير. ضفيرتها الوحيدة تنام على نهدها الأيمن.

القالب الذي أصب فيه التمثال حفرة في الأرض بعمق نصف متر. أعجن أمي فوق مسطح خشبي. لا أطمح في تمثال مستقل، مجسّم. بل صورة مصغرة تضم بجانب التفاصيل، ذكريات. أعرف جيداً أنني لستُ

المثّال الماهر، وأن موهبتي ليست بقدر طموحي. لذلك، قضيت حياتي السابقة في إعادة صنع أمثلة معدة سلفاً. لم ألجأ يوماً للتجريد، ولم أجرب صنع منحوتة خيالية. مع ذلك، لم أستطع فعل شيء آخر غير النحت، رغم أن الحكي الذي دربتني عليه أمي، والتمثيل الذي شجعني عليه زوجها، كانا طريقين محتملين للتعبير، وربما التخلص من الهواجس.

حكايات مرافقة للتماثيل

(١)

(أمي)

ǇƵ ǊǊǏǒơƧ ƥǇƵ Ǒ! ǤnjǂƧƙ ǑƘ!ƒ ƚ!Ǥƪ Ƨ!ƒ ƦƧǂƦƘǍ ǕƚƕǇǂ!ƒ ǏǊƵ Ʀƪǋƞ
ǑnjƞǍ ǎƧƊ ǇǊ ýǆƘơƊ ƥƵƊ Ǆ!½ :ǊǆǤƱǇ ƴǆ ƽƾƘǒ ƽǆǇǆ ƱƤƕ Ɣƙǂ .ƘǒƕƗ!ƒ
ƽǇǤƵƊǍ Ǖǁ ƘǒƊƧ ǤǆǄǂ ǑnjƞǍ ǎƧƊ ǇǊ ýǆƘơƊ ƥƵƊ Ǆ! .ǉǍƞǍ!ƒ ý ǂ Ǒƽ
Ǒƽ ǕǑƤƊ ǊƞǍ Ǒƽ Ǒƪƽǉ ǎƧƊ ǇǊ ýǆƘơƊ ƥƵƊ Ǆ! .ǁƘǀǇǤƵ ǤǆǄǂ Ǒƪƽǉ
ǑǇnjƕƬƘ ǑƘ!ƒ ɋƪǇ!ƒ ǉƦǋ ý ǂ ýǆƘơƊ ƥƵƊ Ǆ! .ǰƥ!Ǎ ǊƞǍ Ǒƽ ǕǑǆƊ ǊƞǍ
.-ƧǤơƘǉǕƒ ǏǄƵ ýǒơƧ!ƒ ýɥƽƊ ƒƦ! .ƽƕǤƱƘ!ƒ ƥơ

ǊǆƊ ƘƧǤƘƤƒ ǤǆǇǒƕ ǕýǒơƧ!ƒ ƧǤƘƤǒ ǊƘǄƶƞ ǊƘ!ǤƱ ǑƘ!ƒ ǊƕƬ!ƒ ƚǇƶ!
ǥǂƧǤƘ ǕǤǋǻƱǍ ƯƧƊ ǐƊ ǐƧƥƊ ǇǊ ǇǍƥ ƔǤƺƽ .ƧǤơƘǉǕƒ ǉǍƤƊǍ ǕƦǍǆ!ƒ
ƦǄơƧ Ǖǐƪǉǿ Ǖ ƟǤƕ Ƭ ƘƒƦǍ ǕǀƥǍƥƶǆ ƘƒǍǉƪ ƥƶƕǍ .ǑǀǇƵ Ǒƽ ǊǒǄƽƱ
.ƚǀǒƧƱ!ƒ Ʃƽǉƕ Ǎ ǥɯǒƊ ǤǇƊ

• هامش على تمثال أمي

بعد غياب أمي بثلاثين سنة أو يزيد قليلاً، اقتربتْ مني سيدةٌ عجوزْ، في يوم ممطر وغائم، ونظرتْ لي بعينين أعرفُهما. مدتْ لي يدَها وأشارتْ كي أعبرَ بها الطريقْ. ارتبكتُ وتوجستُ. فكّرتُ أن المصادفات تحمل لي مفاجآت ليس بوسعي تحمّلها. في صمتي، المواجه لنظرة عميقة، فردتُ أصابعي وعانقتُ يد المرأة كالمسحور، رددتُ بهمس أن هذه السيدةُ تحديداً تجذبُني بشكلٍ لا أقاومُه. لحظةٌ واحدة التقتْ فيها عيناها بعينيّ كانت كافيةً لأستجيب لرغبتها الغامضة. عندما أمسكتُ بيدها، ضغطتْ بقوة لا تُناسب جسدَها النحيفْ. عبرنا النصفَ الأولِ من الشارع بسرعة حذرة، ووقفنا في حديقة خضراء يظللها نخيل. لم تعتلها علاماتُ إرهاقٍ، ولا علا وانخفضَ صدرُها من ضيق تنفس، ولا تعرّقتْ بالتالي. وبينما كنتُ أراقبُ الطريق حتى نعبرَ في سلام، واقتنصتُ اللحظة المناسبة لفعل ذلك، نظرتُ إليها بجانب عيني اليسرى وضبطتُها تتأملني بعينين تعرفاني، عينين زرقاوين أعرفهما جيداً. حينها ارتبكتُ حد أنني فقدتُ توازني وكادت عربة تجري بشكل جنوني أن تصدمنا. ابتسمتْ أخيراً عندما لاحظتْ رعبي، وقالت ما يُخيل لي أنها عبارةٌ قديمة اعتدتُ سماعَها في زمن سحيق ثم اختفت لسنوات، لتأتي هذه المرأة الغريبة لتعيد ذكراها. «عمرك أطول من الحزن». أدهشتني العبارةُ

فنظرتُ في عينيها بتحديق، بادلتني النظر، وهناك، داخلُ الحلقةِ المستديرةِ بحدقتيها، عثرتُ على طفولتي. تائهاً، كنت أسير في شوارع خرافية، منحوتٍ على جدرانها طرقاً صنعتها أظافرُ الشياطين، وشرفات بيوت بهيئة ذيل سمكة، وأرضاً سوداءَ غير أنها متحركة. كل شارع كان ينقلني لشارع أضيق منه، حتى أجدني في النهاية أمام مقصلة، فأتسلقُها بحماس طفولي وأعلّق بين دائرتها رقبتي، غير أن الرجل الذي ينبغي أن يسحب المنضدة من تحت قدمي يختفي، تأتي ذراعٌ طويلة من السماء لها يدٌ عملاقة تلتف راحتُها وأصابعُها المدببةُ حولَ رقبتِهِ وتلقي به في الفضاء، في اللامتناهي، فيتلاشى في ضبابات شتوية، وأبقى أنا فوق منضدتي منتظراً حتى يجتاحني الضجرُ فأهبط لأسير بخطوة راقصة كلاعب الحجلة.

فكّرتُ، بناءً على منطقٍ ضحلٍ، في أن هذه العجوز أمي، التي تركتنا قبل أن تتم الثلاثين منذ ما يزيد عن ثلاثين سنة. فاسترجعتُ صورتها وأضفتُ إليها تجاعيد منتظرة وانحناءة ظهرٍ ولوّنتُ ضفيرتَها الطويلةَ بالأبيض، حينها تشابهتْ معها، ولمحتُ أثناء ذلك أن السيدة العجوز لها ضفيرة طويلة محبوكة التضفير تطل عقدتها الأخيرة من أسفل الطرحة السوداء. أثناء ذلك، يبدو أن المرأةَ لاحظتْ شرودي، فجلستْ في أرض الحديقة وأشارتْ لي بالجلوس، فأطعتُها. اتسعتْ الحديقة وصارت رحبة جداً، ممتدةً من أطرافها حتى السماء، خاليةً تماماً إلا من أزواج أصغر منا سناً، يخطفون القبلاتِ خفيةً من آن لآخر وبحيطة، بينما كانت رفيقتي، التي أوشكت على الولادة، تذكّرُني

بأيامنا الخوالِ، وتضحك بعينين زرقاوين، فأداعب ضفيرتَها الطويلة وأشدُ الشعراتَ الهاربة من عقدتِها الأخيرة. شعرتُ بألم في ظهري، فرقدتُ واسترخيتُ. امتطاني كحصان طفل في الثالثة وظل يهز كتفيّ كأنهما زمامْ. نهضتُ أداعبُه وأدغدغُه، فركض وواصل الركضَ حد أني تعبتُ، وعندما توقفتُ، كان قد اختفى من أمامي. شرعتُ في البحث عنه في شوارعٍ ضيقةٍ ومتفرعةْ، حتى وصلتُ في النهاية إلى شارعٍ شرفاته بهيئة ذَيل سمكة وجدران بيوته مخططة بأظافر الشياطين، وفيٍ العمق مقصلةٌ تطل من دائرة حبلها رأسُ طفل في الثالثة ينظر بعينين زرقاوين حائرتين إلى لا شيء.

في الحديقة، ارتدتْ العجوز إلى شباب أعرفه، وألقمتني براحة يد صغيرة، ثم ما لبثتْ أن نهضتْ، وعبرتْ إلى الطريق الآخر دون معاناة، وعندما حاولتُ النهوض، كانت تودعُني بنظرة زرقاء.

• هامش آخر مع تمثال أمي

كانت أمي تحب الصباحات الرائقة، وكنتُ بمكر أستغل ذلك لأسمع أسرارها. عرفتُ ذات مرة أن زوجها يكره ممارسة الجنس، ويحتقره. أخبرتني بذلك بأكثر الطرق تهذيباً، لما رأيت للمرة الأولى سريرين في غرفتهما. كانت من المرات القليلة التي تحكي لي شيئاً، ربما كانت المرة الثانية تحديداً، ففي الأولى حكت لي أن أبي رحل بلا رجعة، وكان صوتها يحمل من الحزن أكثر مما يحمل من الغضب. قالت إن أبي أصيب بمرض لم يعرف له الأطباء اسماً، فأسموه حمّى الشبه، وعرفت بعد ذلك بسنوات عديدة معنى المرض. كل ما أتذكره أنها قالت إنه ليس مرضاً وراثياً لكنه خطير، لأنه معد، ينتشر بين الناس سريعاً مثل الطاعون، حينها صمتت عدة دقائق، وقالت بعدها جملتها الثابتة كمن يلقي بنفسه من شرفة عالية بعد تفكير عميق، «لذا ذهب بلا رجعة». لم أفهم حينها شيئاً آخر سوى أنه مات، واكتشفت مع تقدم السنوات أنني كنت مخطئاً.

في سنوات طفولتي اختفت أمي. قال زوجها الذي صار عجوزاً في أقل من ستين يوماً إنها قبّلتني وأنا نائم عند الفجر، وقبّلته هو عند باب البيت، وترجته أن يتركها ترحل، وتعود إن أرادت، فرحلت

بلا رجعة. ولما عاتبته بشدة وتملكني الغضب قال إن اللعنات لا يمكن تجنبها. استحضرتها بتمثال صنعته بيدي، بحجمها الطبيعي، ووضعته بجانب باب غرفتها. ظل لسنوات كما هو دون أي تغيير يذكر، لكنه لم يدم كذلك.

(٢)

(أبي)

[illegible]

[illegible]

DžnjdžĂLj LJdž Ǥnjŏ5 LJĂƵƨƽŏ Ŏķ!ƒ ƚǅŏǅ!ƒ LJD ÜDžnjhdž LJŏƖŏh ÜƒĂ5ƧƵ .ƽŏƜ!ƒ LJdž
(.ƚƵƨƽdž ăƧƤD ýǤŏǅ! ƚdžƥƖdž ăĂƪ Ʀƪŏ! ƇĭƥǤnj!ƒ

ǤnjLjŪ ƻƜŏD ýh ÜǬdžƥƥ ƥŏƖŏ ƇǤdž!ƒ LJŪ ƱƖ5 Σŏ! ÜƚFŏƱh ŎķƒĂƱƤ ƦLjǤǂ
.DžNjƥơD Ǭ!ǫ ƧƲLjŏ LJD LJĂƥ ŎLjdž LJĂhƧķƖŏ DžnjLjD ƦƲơŬ .ƖƥƥƧķdž ƦLjǤǂ
ƦƥƧƋ5 ÜƽhƪLjdž LJƦǫ LJĂƥ Džnjķŏh ŎdžǤơķƥŬ LJĂhƜǤƩ ÜǤdžhƧ ÜDžnjLjD ƦLjLjƲ
LJŏnjķ ŎhǤŏƛ LJD ƦƜƧķ5ƒĂ ÜƱĂƖƪǅ! ƚŏLj ǕhƦƱƖƪ ŎLjLjD Džnj! ƟƧƬD LJD
ƻŏƶƜ!ƒ ĭƥƪɳ ƦLjNjƥĂ ƲƧŪƒ Ĭ!ǫ Ʀǅdž .DžnjǅƛdžƦŏƻƶķ5 ÜDžnjŏƧƵ
LJdž ƒ ǄƤķ!ƒ LJD DžƩƧ ÜýǤơ ƚŏD ĬǅƵ ƽƥŏƶƪ LJǂD Dž! .LJŏƱ!ƒ LJdž ƘǤLjƽơh
ƔLjǤɳ LJdž LJĂǂƧơķŏ ƒĂLjǤǂ .ƚŏ5Ǥǂ ƚŏƧơ Ɣnjŏ ÜƦƧǂ5 ƒƦǂNj ÜΣhǕdž!ƒ
Dž! YĂdžƪdž ƘĂƬh ƦƛƥơķĂ ƦhƧķƥǤ5 ÜLJĂǅƶƽŏ ƒƦǤdž Džnj5D LJD LJĂƥ ƧƤŬ
.ƥơD NJ! NJhķLjŏ

DžNjƥơD ƨŏdžŏ Ǥdž LJǂŏ Dž! .ƇǤƪLjĂ ýǤɳƧ DžnjLjD ÜƠƜƒĂ ƥnjɳh ÜƦƲơŬ
LJĂƥ ÜŎ! Ʀƥh Ŏķ!ƒ DžNjƧǤdžƵD ƥŏƥơķ LJdž ƦLjǂdžķ ŬĂ ÜƾƨƧǤh ƧƤŬƒ LJƵ
Ƨdžķ ýhǤƬǆh ƦƧƶƬ ÜDžnjķƧFƒƥ Ŏ5 ƦLjǂ ǤdžLjŏh ÜǤdž ƚƲơ! Ŏ5 .ƖƥơƒĂ ÜǁƬ
.ƖDƧdžƒ ýǤdžɳ LJdž ĬƖhķ Ǥdž Ŏķnjɳ ƒĂdž Ŏ5 ƦƥɳĂ ÜƦƽķ!ƒ Ǥǅ! .ĭƧnjƲ ĬǅƵ
ƦLjǤǂ ÜƇŎƬ Ŏ5 Ƨǂ5D LJD ýhƥĂ ÜLJŏƱ!Ǥh ƣƱǅdž!ƒ ăƧǤƶ!ƒ ƥƪɳ!ƒ ŎLjƧǤƛD
ÜǤnjŏķhǂƧh ĭƧƬƤ ƽǤƶƁĂ ÜĭƧɳơ ŎƪƧǂ ƽĂ5 ŎLjƪǅɳķĂ ŎLjhơƪķ
ƻƧƱķ Dž! ÜǤnjƱĂhNjĂ ǤNjƥĂƶƬ Ŏ5 .ƾƥŏƥɳ ƾĂƜƵ ýhƖķƪŏ! ǤnjƛǅƛdžƺơķǤ5
.ljĂƋķķ Dž! ÜƽhƬ!ƒ ƚƲơ! Ŏ5Ă .ǤNjƧŏ5ƨĂ ǤnjƖŏnjƬ ýdžƪŏ Dž!Ă ÜLJŏƵ Ǥnj!
ƦhƜƩ .Ŏ!ǫ ƦƽķǅƘ LJD LJĂƥ ƦǂƧơķĂ ÜƚƥơŎ Dž! ǤFŏƬ LJƋǂ ƦƜƽķLjƒ
ƦƶƜĂ .ǤnjƽǅƤ ƦƜnjLjĂ ÜǤhƬķLjdž ýƒƨŏ Ŭ ĭƦ!ƒ ĭĂƜƶ! ƦƧƲLjĂ
LJdž ǤnjƛǅƛdžƨƧh Ĭķơ ǤnjķŏLjơDĂ ǤNjƧnjƲ ĬǅƵ ăƧƤŪƒĂ ǤnjLjƱh ĬǅƵ ƾƥŏ

ǴNjƧnjƱ ǈJdž ǴnjƙIǈjǴƵ .ǴnjhǴƮ ƙǈjŮ ǴnjƙƥƵDĂ ÜƙƘ5Ʀƿ Ĭƙơ ǴnjƙƿƧƙƤǴ5 .ƻDžƤ!ƒ
Iƥƶ! ÜýĂƱD Iƥdž! ƧƖŏŪƒ ǴNjƥnjǈj ƼĂ5 ĭƥŏ ƘƧdžƙƖƒ .ǴnjŏƥnjǈjƘƖƖơƙĂ
ǈJĂƥ ŎǈjdžƘƧƧơƙ .Ǵnj ɯhǈjh ƧƶƬD Dž! ǴdžǈjŏơƘƥdžɳƙ .ƥhŪƒ NJhƬƙ ƼƑǴƿƥ
.DžnjƙǴǂƧơ Ŏ5 ǈJĂ!ƒƨŏ Ů DžnjƙƥɳĂ5 Ŏ!Ăơ Ƙƽƙ!ƒ .ǪǪ!ǫ ƧƱǈjƙ ǈJD

ǄǴhĂ ǈJdǂ ÜDžnjƙǴhƸƧ Ŏ5 ǈJĂɳĂdžŏ ƗƵĂ!Ǵh!Ǵh ǈJĂƱŏơdž!ƒ ǈJǴǂƖ!ƒ ǈJǴǂ)
. Ɨ ƥơŏ Ǵdž ƔƥƧƙ! ƗƽƧƬǇ! ǴɳƧƤ ÜɯĂƨ ĬnjƙǈjƒǴdžǇǂĂ ÜDžnjƙƾƖD ƟǴƙɳƒ
(ƥơD ƠƮ ƽŏ ǈJD ǈJĂƥ Ɨ!ƥǴhƙdž!ƒ DžnjƙƒƧƱǈj ƘIƙ!ƒ Ĭƙơ

ýɳƧǂ ÜNJ! ƘnjɳĂƙ ÜŎǈjdž ƔŏƧƿ ǈJǂƧ Ŏ5 ƩǇɳŏ ǈJǴǂ ǈJƑǴǂ Ɨdžƛ
NJŏ!ǫ ĭƥŏ ƘƥƥdžÜƧƦơh .ƩDƧ IƨnjhNJƙŏŏơĂ ÜǤƛŏƥơ ƗƵĂ!Ǵh!ƒ Ŏ5 ƱƿǴƖ
ǈJŏh ƘǂƾơƙÜŎƙƧŏơ Ŏ5 .Ư hǈj ǖh NJǈjD ƘƽƧƶƽ ÜNJƺƖƧ ĬǇƵ ƘƱƺɯĂ
ÜƧƒƥɳ ĬǇƵ ǤƽƿƒĂ ŎƤƧƙƖŏ ǈJǴǂ ƧƤŬ Ƙƽƙ!ƒĂ ÜƗƶŏƧƖ ƘƒĂƱƤh ǴǴdž!ƒ
Ĭ!ǫ Ưǂ ƧǇ! ýĂNjƦ!ƒ Ŏǈjƶƽƥ .ǤƑŏƬ ɣdžƖD DžǇ5 NJhǇƿ ĬǇƵ ŎǈjƦD ƘƶɯĂ
Ŏ5 .ýŏƛǴdžƙ!ƒ ƥƑƒĂƨ ƗŏĂƖƙ Ŏ5 ǤǈjǴŏơD ǴnjɳǴƙơD ɉƒĂƱdž ƘɳƧƤDĂ ŎǈjĂǇƱǈjh
ƥƖɳ!ƒ ýƤƒƥh ƧƛƵD Dž!Ă ÜƻƨǈjŏDžǇ5 ÜDžNjƥơD ǈJƱh ƘIIƬ ÜǤɯŏD ŎƙƧŏơ
.ǤdžǴdžƙ ǤŏĂǴƤ ǈJǴǂ .ǴǴɯƵD ĬǇƵ

ƧƱǈj5 ÜNJhǴŏƛ ǈjƋǴdžƥ ƘƿƧƸD Ĭƙơ DžNjƥơD ƻƨǈj ÜƘǴƽƧƬ!ƒ ǟƥơǫ Ŏ5)
(.Džnjƽŏ ǈJD ǈJĂƥ Ƨdžơ Ūƒ ǈJĂǇ!Ǵh ƗƤƱǇdž!ƒ ǈjƥŏ!

ƧǴnjǈj!ƒ ɣǇƱĂ ÜǈjƧƒĂɳh ƗƽƿƒĂ!ƒ IDƧdž!ƒ ƘǴƤƧƮ ƘƶdžƖ ÜƘǴƱơ! ýŬƤ
ÜƗdžǇƖƙƖdž!ƒ ǈJĂƱh!ƒ ƼƬD Ƙǈjǂ ǴdžǈjŏhĂ .Džƥ!ƒ Ŏ5 ƚƿƧǴƸ ƗǈjŏƥdžƘ!ƒ ƯƧDĂ
ǈJdž ǄǴdžƥ ŎǈjŏƥnjƙƗơĂƙƽdž!ƒ ƗƵĂ!Ǵh!ƒ Ƙǈjǂ ÜǴNjƥɳD Dž! ǴǴɯƵD ǈJƵ Ǥƛơh
.ƗɯŏƧƶ!ƒ Ǵnjƙơƙ5

• هامش على تمثال أبي

لسوء طالعي، لم أر أبي. رحل وأنا في سنواتي الأولى، فلم تحفظ ذاكرتي شيئاً غير صورته التي ظلت معلقة في جدار غرفتي. كل ما وصلني عنه مجرد حكايات متناثرة لرجل بائس لم يعرف السعادة يوماً. كان متوتراً، مضطرباً، ضائعاً، أزمته الكبرى أنه لم يفعل يوماً ما أراد، وكانت المسافة بين ما يفكر فيه وما يفعل مثل هوة تفصل السماء عن الأرض. حدثتني عنه أمي كثيراً وأنا في سنواتي الأولى، كانت مشفقةً عليه من حيرته على الأرض. وحكى لي عنه زوج أمي حكايات لا أتذكرها كثيراً بقدر ما تركت فيّ انطباعات عنه. رغم ذلك، ظل بالنسبة لي غامضاً، شخصاً مشفراً، متحفظاً، وربما لم أفهمه إلا من بعض الرسومات التي تركها والتماثيل الصغيرة التي صنعها. هكذا خدمني الفن لفهمه أكثر مما خدمتني الأحداث الواقعية.

(٣)

(رسالة من زوج أمي)

في أيامي الأخيرة، كنت أسترجع ذكريات طفولتك معي لأني شعرت بأنك ابني. أحكي لك في شغف كان يجب أن يودّعني منذ بدايات مرضي، عن الأيام التي تُهتَ فيها في شوارع المدينة الصغيرة، عن خوفي المستمر من أن أفقدك ابناً قبل أن أهنأ بأولاد منك يحملون اسمك للأبد. ورغم ما عُرف عني من ضعف ذاكرة طيلة حياتي، كنتُ أقص على مسمعك أحلام طفولتي وكوابيسها. في بعض اللحظات، كنت ألتزم السكوت وأنظر نحو باب غرفتي. كان صمت المنتظر لا صمت الخائف. بعدها، مع علامة استفهام على وجهك، كنت أخبرك أن ملاك الموت جاء وأطل. بنفس سخرية جدك، صرت ساخراً حتى من الموت. قلتُ: ملاك الموت يقترب ليسمع الحكايات. فلمّا همستَ في أذني أن أكف عنها إذن، ابتسمتُ بسخرية أكبر. لن يقبض روحي إلا مع انتهاء حكاياتي، قلتُ.

لا أعرف تحديداً عدد أيامي الأخيرة، ربما تتجاوز الشهرين. خلالهما كنتُ أحتضر كلما غبت عني. في مرات كثيرة، كنتَ تدخل فتجدني أودّع العالم، أناضل من أجل بقاء الروح في مواجهة من ينتزعها مني. حينها،

كنت أحسم المعركة. أضغط على يدك بشدة، فتنظر لي وأحكي لك حكايةً جديدة. ذات مرة يا ابني الجميل...

من ضمن ما حكيته لك، حكاية عن مولدك. كان سراً احتفظت به أمك لسبب أجهله. كان مولدك عسيراً، ودون أن نعرف سبباً لذلك، جئت إلى العالم بقدمك لا برأسك، بينما جاء توأمك طبيعياً مثل بقية البشر (حضرت مولدك بالطبع، وكنت أعرف أمك جيداً). حينئذ، قلتُ لك إنني أبوك، وإنك صورة طبق الأصل من أبي، واختلفتَ معي. قلت لك انظر إلى الصورة المعلقة على الجدار والتي لم نر غيرها أبداً: شعر رمادي يغلب عليه البياض، عينان غائرتان، رماديتان، بنظرات زائغة كأنها تستقبل القادم غير المرئي بحيطة، ونصف ابتسامة بنصف وجه.

وقررتُ، دون إرادة مني، ومع ساعات الفجر الأولى، أن أرتدي ثياب جدك القديمة، وأردد اسمه بتكرار كأنني أحفظه، وطلبتُ منك أنواع الروائح التي كان يفضّلها. لبست نظارته الضخمة، وبنبرة صوته الناعمة قلتُ لك: لا شيء في الحياة يسعدني مثل أن يكون لي حفيداً مثلك، وكنت أقصد ذلك. وبتكرار، كنت أطلب منك ألبوم الصور العائلية، أسحب الصور التي تجمعني بجدك، أعيد ترتيبها في كل مرة بشكل مختلف، أشير لك بسبابتي إلى الشبه بينك وبينه، نفس النظرات، انظر، وطابع الحسن. الجد والحفيد روح واحدة، يا حبيبي، امتداد لخيوط غير مرئية واكتمال لحكايات ناقصة. أتعرف أن ثمة أجداداً يموتون يوم مولد الحفيد؟ أن الروح تنتقل بالمعنى الحقيقي من الأول للأخير؟

في بعض الأحيان كنت أرى شفقتك عليّ. أنت زوج أمي، كنت تهمس في أذني. وكنتَ تود لو تعدني بابن يشبهني. فأربت على ظهر يدك بحنو. جدك كان شبهك، أقول. لكنه، لمّا كان شاباً، لم يكن صورتك. أشرد. يطول صمتي. أنظر نحو نافذة غرفتي المفتوحة بحيطة المنتظر، ثم أبدأ في حكاية جديدة. كان جدك يتوه في المدن الكبرى، ولسبب لا يعلمه، كان يعتبر كل الأماكن بيته، فاعتاد الغياب. ربما عاش سعيداً لأنه لم ينتمِ إلى شيء، وربما مات وحيداً لأنه لم ينتمِ إلى أحد.

يوم رحيلي، طلبتُ منك أن تشتري لي ثياب عريس. قلتُ لك إنني أود أن أودّع الحياة بملابس مبهجة. سألتني كيف أعرف أن اليوم يوم رحيلي. أتتذكر؟ أخبرتك أن الموت يأتي عندما تتشابه كل الأشياء... وعندما نجد أشباهاً لنا يحملون كل ملامحنا دون فارق. عدتَ بعد ساعة واحدة، وفهمتَ من نظرتي الأولى أن ملاك الموت ضبطني صامتاً، بلا حكاية، فقبض روحي. رأيت حزنك قبل أن ترحل روحي من البيت. وقبل أن تمر دقائق، جاء جيراننا واحداً وراء الآخر. نظروا إلى الثياب الجديدة، سأل أحدهم إن كانت وصيتي أن يكون الكفن ثياب عريس. نعم، هي وصيته، أجبتَ أنت بحزن.

قالت امرأة في نهاية الممر، بصوت هامس سمعته بالكاد: الرجل لم يمت، فابنه صورة منه. انتبهتُ دون أن أتبين من هي، وسمعتها تسترجع ذكريات طفولتك، بوجه يحمل ملامحي.

• هامش على تمثال زوج أمي

كان زوج أمي مخرجاً مسرحياً، يصحبني مساء كل يوم إلى المسرح القريب من بيتنا، يجلسني في الصف الأول، ويبدأ عمله مع ممثلين مبتدئين. كان هادئاً جداً، يمارس حياته كمن يعرف النهايات، رغم ذلك يفعل الأشياء، حتى البسيطة منها، بمتعة خاصة كأنه يخلدها.

في الطريق إلى المسرح، كان يمسك بيدي الصغيرة، وينظر من علو شيخوخته المبكرة إلى خطواتي الطفولية وشعري المسترسل ونظراتي الزائغة. يحكي لي كل يوم سراً جديداً بعد أن أعده بحفظه، بوضعه في بئر، بحبسه داخل خزانة هائلة لا يخرج منها أبداً. وفي طريق العودة يبدو منهكاً لكنه سعيد، فيصيبني حينها الدور لأحكي له سراً. وعائي كان فارغاً، لذلك كنت أستبدل الحكاية بحلم، حلم نوم أو حلم يقظة، وعندما لا أجد كنت أخترع أكذوبة، يسمعها بابتسامة ناضجة ويجاريني فيها، فأتحمس أكثر وأحكي أكثر حتى نصل إلى البيت.

لمدة عشرة أعوام متتالية، شاهدتُ معه كل البروفات المتعبة لعروضه التي لم تلق أبداً أي نجاح، على عكس ما ظننته وقتها. رأيته يرسم

بالطباشير خانات مرقّمة من واحد إلى عشرين على أرضية الخشبة الفقيرة، يقترب من الممثلين ويدقق في مكياجهم وملابسهم، يمسك بيده النص ويشير بالبدء. حينها تعلمت بعض الدروس التي كان يلقنها لهم، وشكّلت كلماته عبارات مقدسة استخدمتها دوماً لتسجيل اللحظة. «الممثلون الذين لا يحفظون النصوص ليسوا بالضرورة ضعاف الذاكرة، أغلب الظن أنهم لا يركزون كما ينبغي، وأفضل طريقة لهم ليحفظوا أن يبدأوا فوراً تمارين التركيز: قبل النوم، عندما يظلم العالم تماماً، عليهم مراجعة يومهم بالتفصيل منذ استيقظوا حتى عادوا لمخداتهم. في البداية سيعانون من فقد بعض التفاصيل، مثل عدد الخطوات التي ساروها حتى وصلوا للحمام، عدد السلالم التي نزلوها أو صعدوها أثناء ممارسة حياتهم، إيماءات الرأس وحركات اليد الصادرة ممن تعاملوا معهم، لكن مع الوقت ولاضطرارهم للإجابة على هذه الأسئلة قبل النوم سيركزون جيداً. ولأن من بين تفاصيل اليوم الجلوس لحفظ نص، ستكون المساءلة الليلية جزءاً مهماً في المراجعة».

لم أنو في أي لحظة من حياتي أن أكون ممثلاً، مع ذلك وجدتني أمارس هذا التدريب باستمرار حتى سار عادتي. مع الوقت التفتُ إلى أنني لا أمارسه من أجل تقوية الذاكرة بقدر ما هو لعبة لاستحضار العابرين، فك شفراتهم، بناء حياة أخرى معهم. إيماءات الأشخاص، حركات أيديهم، نظراتهم، كلماتهم العابرة والتلقائية، كلها أشياء تعبّر عن شئ أكبر. وربما نفعني ذلك في شئ عندما بدأت في تشكيل تماثيل صغيرة من الطين أو الصلصال، حينها بدأت أنتبه أن ملامح المخلوقات تعكس حقيقتها.

(٤)

(رجل البرميل.. و بائعة اليانصيب)

[illegible]

ȺǩȦȦȮǵ ɉǕ ɍǕ ȖǟǼǣǕ ȺǠǭǼȞȾ ȴǒ ǻǼǵǕ ɉǕ ȴȡǿȿ .ţȥǄǣ ǞǶȊ (ȬǒǣǼ
ȸȵ ǟǣȀȽ ǡȥǄǅǒǟ ɁȎȩǕ ȸȵ ǒǄǅ ȬǄǿ ȥȽ .ǥǿǟȀ8ǣ ȴȾȽǟȥȥǕ ǧɊȵ
ǼǵǕ ȥȽ .ȼǬǄȿȁ ȼǬǠǹ ɉǕ ǼȞǣ ǦǤǒȦȶȊǒǟ ȼǬȺǼȵ ȭȁǨ ȬǄǿ ȥȽ .ǿǖǫ
ɉǕ Ǽǵ .ɉȥǄȵ ȥȽ .ǒȶȆǒǟ ȸȵ ǥǼȅȵ ȴȾǤȝ ȯȀǬǨ ȸȺǾǒǟ ǒǤǒȿɉǟ
ȬǨǨ Ƀȥ ȖȸǤȆǒǄǅǟ ǧȦȦȮǵ ǨǠǭ .ȀȒǺǒǟ ȼǠǕ ȯǠȩ ǕȀǄǨ ȴȽǼǵǕ
Ȧȵ ȦȾǒȿ ǕȦȾȬȖȵ ȦȾǒ ɉǕ ɍǕ ǦȒȩȦǬȵ ȦȾǠǕ ȴȡǿȿ ȖǦǤǣȦȾǠ ɍ ȖǦǨǤǨǒǟ
ȺǠȿǕǿ ȮȶȝǒǄǅǕ ǟȿǿȦȊǕ ǡȀȽ ȸȝ ǟȥǭǼȞǨ ȸǾǒȥ .ǟȒǾǕ ȦȾȶȝǼȾ
ȦȽǼȞǣȿ ȖȺǣȥǄ ȺǠǕ ȴȽǼǵǕ ȯȦȩ) ȺǬȦȮǵ ȴȾǒ ǟȥȮǵȿ ȺǠȿȀȭǾǨȿ
ɍ ǢȩȦȞǬǨ ȴȾǒ ǦǦȆǾǒǣ ǧȦȦȮȞǒǟ ɉǖȭȿ ȖȺǒȦȶȉ ȺǠǕ ȀȵǕ ɁȮǵ
ȸȝ ɍǟǕȅ ǟȥǵȀǖ Ⱥǵɏȭȿ ȺȝȦȬǠ ȸȝ ǟȥǭǼȞǨ ȸǾǒǟȿ .(ȐȩȦǬǨ
ȺǠǕ ȯȦȩ ǥǿȦȶǒǟ ǼǵǕ .ȦǬȺǼȶȭ ǦɌȾǼǣ ǦȺǼȵ Ƀȥ ȬȭǓȿ ȦǤǵǕ ȤǤȭ
ȮȾȵȀǣ ȬǄǅȀȭ ȦȾǤȥ ǨǠȭ ȖȦȾɌȖǣ ȼȆȦȹ ȥȽ ɉȦȭ ǦȞǨǣȿ ȀȭǣȿȖɉȥǄȵ
.ǦȞǄǅȦȐȶɌǒ ȖɏȥȾǠȵ ȀȾȡ ɏɌȬǣ ȖȴȽȥȝǟǕȿ ȖǥǿȦȶɌǒ ȺǨǿȥȝ ȀȾȏǕ
ǦȦȦȮǵ Ȭǩȵ ȸǾȞȶǬȆȶǒǟ ȬǦǨ ȸȵ ǟȶȾǄǅȿ ǟǿȥȦǹ ǨǨɍ ǦȦȦȮǵ ȸȵ Ȧȵ
ȸȭȦȵǕ Ƀȥ ȀȾȚȦ ȀȒǺǒǟ ɉǕ ȺȞǬǓȶǒǟ ȬǄǅȀǒǟ ȀȿǕ ȬǒǣǼ ȝȵ .ȀȒǺǒǟ
ȖɁȆȥȵ ȝȵ ǒɏǺǣ ǦȦȦȵ ȬǦǨ ȸȵ ǿǣȀ ȼǬǕȿ ȖȼȊȦǬ ȸȝ ȸȿȞǽ ɍȿ ǥǕǄǅȥ
ȬǦǨ ȸȵ ǼǵǕ ȼǦǬȦȦ ȴǒ)ȬȶȵȀǦǒǟ ȬǄǿ ȬǩȵȊ ȦǬȿȵȿ ȐȦǣǕ ȀȒǺǒǟ ɉǕ ȴǬ
.(ȒȊǬȵ ȺǠǕ ȨȬȥ ɉȿǼȭǬȵ ȴȽ Ȗɍ ɏǕ ȐȦǣǕ ȯǠȭ ɉǕ

- **هامش على تمثال رجل البرميل وبائعة اليانصيب**

في تلك الليلة، كانت بائعة اليانصيب الخرساء تنظر إلى الملتفين حول حطام البرميل في حيرة، تبدو كمستمعة رغم أنها قد لا تكون كذلك..فلا أحد يدري أيضاً إن كانت صماء أم لا. من آن لآخر، تطلق صرخة بكاء مكتومة، نهنهات حسرة، وتقترب من حطام البرميل. تقول بإشارة من يدها ما يُفهَم أنه كان هنا في سكينة عندما اقترب رجل قاس القلب وأمر آخرين بحرق البرميل بزبالته. ثم أخرج علبة كبريت وسكب بعض الجاز وأشعل البرميل ورحل، بعد أن أمرهم أن ينظفوا مكانه. تقف في المكان الذي رأت فيه كل شيء، وتعيد من جديد مشهد صراخها ورجائها لهم، تدخل في حطام البرميل وتمثّل كيف حاولت إطفاءه. بينما يواصل الجالسون حكاياتهم.

في تلك الليلة، أيضاً، لم يكُف الأهالي عن اجترار ذكرياتهم النادرة مع رجل مجهول، ولم يكُف العُمال، بحركات مكررة، عن إزالة جثته التي ذابت بين الورق والزجاجات البلاستكية وحفاضات الأطفال. ومع شقشقة الفجر الأولى، كانوا تحت أغطيتهم، يشاهدون في أحلامهم

الملتبسة مدينة ممتلئة ببراميل بنية اللون يطل منها رأس رجل منكوش الشعر واللحية. وعند الصباح، دون أي يقين يُذكَر، حكى أحد المارة، تحديداً الرجل الذي افترض أن رجل البرميل هو الخضر، أن المدينة صارت برميلاً، وأشار بيده إلى السماء وقال: «ما حرقوه وما قتلوه ولكن شُبّه له». وانتبه بعض الذين اجتمعوا من جديد في مكان البرميل أن بائعة اليانصيب الخرساء قد اختفت.

(٥)

(الرجل ذو القضيب المنتصب دائماً)

[illegible]

ĘĀÔΛş ÛḺŁǼǵǗ ȯƺŐΛ ÛǦĦĐZÀη ǦĦĐZÀη .ŌŸŧöä ḺŦËöǗ ǡÀÊǪΛ
ÛȳäÂęɟä ȒĦǣ .ɎŸŦη ȼĒĀǪȭ ȧƺƺ ÀǹǓ ÂĀŐĒƺ ÛȸĒǪŐĒŸÛöä ȼĒŸDZÀǣ
Ḻö ÛǞȑǿǗ äşşĀŦǩş äƺŐöÂφä ÛȻƺȒȝ âǗÀǣ ȷƺÛĒĦΛ äƺφĀȭ ȸΛǾöä
ǼΛǪȅä ÛȻǼȝĀÊΛ Ʉȭ ÛɃǾöä ȼĒǹǗ ȳǼŐǣ ȬÊηǗ Ǽǵäş ɍǗ ḺŦĀη ǰΛΛ
ɁŸȝ ƵÔöä ÀǹǓ Ʉƺ ȸǵ ǼΛǪȅä ɁǪǵ ÛÀǹǓ ɁöǗ Àǹɇäş ÛÀǹǓ ɁöǗ
ȳĀĒö ɎηĀȭ ȼȝǾDzǣ ȯĀηş ÛȻÀΛÀȅ Ʉƺ ǢĒŐǩ ĀŦĀĒǵ .ŌDZÀöä ɄǪĒÔǹ
Āη äÀÊȭ ȷǗ Ʉƺ ǞŦǤǪȊη ḺDZ ḺöǗ ɁŸȝ ȒĀǪφĀƺ ÛǼÔę ȷşǻ ȼΛÛǣ ɁŸȝ
.ȼǤĒȒę ǡĀȍǗ Ǽę

ÛǟǿäÀŧǵä Ȼǻää ḺŁÀŧǣ ȼǤĒȒę ȸŁǻş ÀĒÔŐöä ȼφƺŸÛΛǣ ȜŸǹ ÛȐŦφ
ȼĦÛę ȳƺĀö ḺŸÊǪÊΛ ǗǼǣ .Ḻöɟä ɁȉɎǩ ɁǪǵ ȻÀŦş ɁŸȝ ɁŐŸǪȅäş
ȸÛǣ ǞĦȑäş ȼŸŁĀDzǪƺ ÛǥǾƺĀΛöä Ʉƺ ǢŐǫ ȸη ǡÀÊǩ ŏƺȑ ȌĒÔǣ
ȷşǻ ȘŐĒǪȅĀƺ ÛǼΛǼDZ ȸη ȻƺŧDZĀŁ ȳäÂęɟä ȷǗ ÀĒȡ ÛȼĒΛĒȝ ɁŸȝ ȼȝǟǿǽ
.ǦȭÀǵ

ǦƺĀÊŧöä 8ÀǶĒö ȼǩäƺÛǹ ǼĦΛ ȸŧȭ ǿĀȅ ÛŌÊȮǣ ȼǪĒǣ Ʉƺ ȯƺDzǩ
ǦŐŸĦŧöä ǿƺÔöä ŌÊȮöä ȄĀΛǣ ȻĀΛĒȝ ǨĦĐÊη ĀŧΛĒǣ ÛȼƺǼŁ ȸĒäş ȼΛĒǣ
ǗɁΛŧĒöä ȼȝǟǿǽ ǙǣüǪǩ âÀȝ ȷĀǪÊĀǣ ǦŸĒŧDZ ǥǗÀηä :ȷǟǿǼDzöä ɁŸȝ
Ʉƺ ǦŸĀǜ ĀŁÀDzǵ Ʉƺ ŌŧĦǩş ǯǿǼη Ʉƺ ȼǤφĀDzǣ ȄŸDzǩ ǥǗÀŧöä ȄĀφ
ĀŦö ǴǤȍǗş ŌŧDZǗ ǧǿĀȅ ǦŸĀÛöä ǗȜĒȑǿ ǼȅǗ ḺŦηĀηǗş ĘÛΛöä ȸȅ
ŌǪĦǩ ǥǗÀŧöä ǗĀŦĒǪΛDZş ɁŸȝ ȷĀÛęĀÊǪǩ ĀŦȅǗǿ ǦηǼŐη Ʉƺ ȷĀǩÀĒĀȑ
ǢφĀDzǣ ȄŸDzΛ ƺŁ ǗǦÊəĀǣ ĀŦǩĀȝĀǤÛφä ȷǗ ÀĒȡ ĀŁǻÀĀŧǣ ǥǿƺÔöä

***

ÆĀDzǩ ȸȮȶ ɍ ĝåÆĦɲ ǦÛÖɸ ʔȭŮ Ǧ Î ŁÆǟ ȷȘÀȚ ÛȂəÀDzʒȘ ǎɍÀÀȕŮ
ÛǦÆÆǭ Ÿǭ ȘÆǦǩ ÛĝǿÀȶǟ ȸɳ ǦȒǟ ĝŮÀɳǟ .ÆÔǪɳ ÆȒȘ :ÀȚÆǬŮ ÀȚÀǟ
ÀŁÆ ÀȚȚǟ ȄȶŸǪǭ ȨÀÛǟ ȼÆŸʒ ǨǨÛȩȘ ÛȼǤǪÀ ȷŮ ȷȘǻ ȼɳ ǨǟÀǪȩǟ
ÆȒȒÖǟ Șǽ ȮDZÀǟ ȒÀǪɸǟ ÀɳÆÀʒȘ .ÀƶÀÀǟ ȻƶȒʒ ȃŮǿ ʔÀȶǟ
ĝÀȚǪɳ ǨŸȘȘ Û ǧǿǾǪʒǟȘ ÀÆʒɳ ȯɍÆǟ ȼǭ ǨȶȆǪǟ ÛÀȶǟǻ ÆÔǪȶǟ
.ÀȚǟ ǖǦȞ ȴǭ ȼɸŮ ÀÆȡ ÛǟʒÆǵ ǕÆǦ ȷŮ

ȼɸǖȭ ÛȭÀǦǩǿǟ ĝǿÀǭǖǟ ȢŸÆÀȭ ÛȻÆǵȘ Û ţǿÀ Î ǭÀǟ ȮDZÀǟ ÀÆȅ ȷÀȭ
Ûȷƶ Ȯǟ ǧɍƶȶȍ ÆȶȞǪ ȷŮ ȷȘǻ ȬȮÀ ÛȴǭÀȞǟ Ʉƶ ȢŸȉ ǫÆȞ
Ûȼǟ ÀȚǟÀDzʒŮ ɃÆǦǩ ʔǭȘȷǟ ÀŁÀȚʒ ǧǟƶÀȅ Ʉƶ ȘÆǦǩ ĝÀǪƶ .ǴDZǿǖǪƶ
ÛȻÀǦǺǩ .ȻÀDzǵ ȧƶƶ ɄŁ ȄŸDzǪǭ ȕǬƶ ȄŸDzǭ ȻƶȒȞǟ ȨÔǪŸǩ
.ȼǩÀǵ ǦŸȕ ȳÆÆȅ ǦȍÀÀǟ ȻǾŁ ÆǬƶ ƶǭ ȼɸŮ ÛÀȚʒÀȶȅ ǻÀǪʒǟ Ǧǵȩƶǟ
ÀȚÆÆǟ ȨɸÀȞǪǭ ǦǪȩǘȶǟ ȼǪǟƶǦȡ Ȯ8ǪȆǪƶ ÛǦȬȞɲ ÀȚɸŮ Ʉƶ ǦŸŁƶǭ ÀȮÀ
Ȼƶȓʒ ÆÂÆȅ ÀȚȞDZÀȑ ƶǭ ȼɸŮ ÀȭǾǪ ÀɳÆÀʒ ǻȞÀȅ ȨÆÀ .ÀȚǪȞǪɳ ĝǟǻŮ
.ȮÔ ȷŮ ȸȮȶȶǟ ȸɳ ɁÆɳ ɃŮ ʔȭŮ ȮÆǺǪ ȷŮ ȷȘǻ ǻȶDzǵȘ ǟǟÔǪǟ
ţÀÊ .ǻǦȒȡ ÀȚÆɳÆǟ ȃÆǟÆǩ ÀȶÆǟ ǟǿÀŁ ȻÀÆȅ Ȯȍǟƶǭ ÀȚȞƶÆ
ȸʒ ǦÆɸÀDzǟ ȨəÀÊǟ ǧǟÀȚɸ Ƶȩƶǩ ȷŮ ȷȘǻ Ûȼǭǟ ʔǪǵ ǦǟÀʒ ÆȭÀȘ
.ȐÀǪȶǟ Ȼƶȓʒ ʔȭŮ ÀȚÀǟ

ȼǦȚÀ ǟǟÀǦŸDZ ɁÆǩÀȘ ÛǦǪəÀÀǟ ÆŁÀ Î ȶǟ Ȯȭ ʒDZǟÀ ÛǨÆǦǟ Ʉƶ
ǦȩÂȩǟ ȸȞǭ ÀȚǭ ȃÀǦǟ ʔŸʒ ǧÀȩǻ ʒȶÊÀ ȷŮ ȮǦȩ ǻÀǿȘÀȑ ǻǵǟÀǟ
ÛǿÀÖÀȘ Û ȏ ƶȚÀǟ Ʉƶ ţÀ Î À ȷŮ ȮǦȩ Ȼƶȓʒ ʔȭŮ ÀȚÀ .ǴȢɳ ǿƶÀȮʒ

[illegible]

***

[illegible]

***

gǼʒ ӯǺȺȺ ɉǗ ǼȺȀȺ ¢φǗʂ ÛäǾȽ ŌȮǽ ɭǪȚȺ ɉǗ ǢDzȺ ɍ ¢φǗ Ʉʐ ȀƟʐ
ɉǗʂ ÛǦȅǿǺȶȶȫä gȀǯȭ ȸɳ ¢ȶȯǘȺ ¢ǤɆȒȩ ɉǗʂ ÛƷəǺDZ ¢φǗʂ Ûğ Ǻʒ Ǻȅ
Ʉʐ .¢ɳƺφ Ǧʐ Ȁ8ȯ Ōȍʂ ɂǪǵ ¢ǪɆæ Ʉʐ ŌȫȺǪȺ ɉǺȭ Ǻȶ ȺɆæ ÛǿǺǵ Ȅ ȫÛȫä
ÛdzǺǦȪȫä Ʉʐ ǨɆǦȫä ğ Ǻɳ ÂŸǪȆɳ ɃȀǪ Ȋ Ⱥ ɉǗ ǢDzȺ ¢φǗ Ȁȭ Ǿǩ ÛȀȺȀȆȫä
Ōȶ Ⱥȫä ¢ȶDZǺȚȺ ɉǗ Ǧʐ Ǻ Ǻɳ ɁȀȆɆȫä ȻǼɆæ ¢ǤɆȒȩ ȸȒǵʂ Û¢ǤȺȶȫä ȔǤȒʐ
ÛǦŸȪȫȶȫä Ʉʐ ǦȫŸȞȶȫä ǦŸɆȶDzȫä gǗȀȶȫä ɂŸʒ gȀȚφ ɂȫȫǗʂ Ûɭ ŸɄȫä Ʉʐ
.ӯǺφʂ ÛǟɳǺȶǩ ¢ȚǤ Ȋ ǩ ǨφǺȭ ɄǪȫäʂ

• هامش على تمثال الرجل ذو القضيب المنتصب دائماً

لم يقترب أحد حقيقةً من هذا الرجل المثير للدهشة. لم يسمعه أحد كما ينبغي. كان محض عضو ذكري يتحرّك. الأفدح من ذلك أنه أيضاً لم يقترب من ذاته، كان يعبّر عن نفسه باستخدام ضمير الغائب، ينظر إلى وجوده كمن يطل على غريب. كم مرة في حياته شعر بالألم لا لأن الألم يتحرك بجسده، بل لأنه يتحرّك بجسد آخر يعرفه ويمر أمامه!

السفر الثاني

اليوم الأول

يبدأ اليوم بصباح غائم وسماء محمّلة بالمطر. وفي الظهيرة تتحول الجزيرة لقطعة من جمر. تهب ريح عاصفة توشك أن تقتلع الشجرات وتُسقط النخيل. مع دخول الليل، تمر نسمات ويروق الطقس. وبعد ساعات قليلة يضيء البرقُ السماءَ وصدى الرعد يهز الأرض. في هذا اليوم، أرى الفصول الأربعة متتابعة.

أتابع أثناء ذلك حال التماثيل. أراها مبتهجة بالشمس التي تخترق طبقتها الخارجية، وتداعب، أثناء مرورها، خشونة الطين. شيء غامض يتكوّن بداخل منحوتاتي، يغيّر لون الجلد ويمنح حياةً للوجوه. أضع يدي على صورة أمي فأشعر بها تنبض. أنظر للرجل ذو القضيب المنتصب دائماً، فأراه يبتسم لي. بائعة اليانصيب تبدو لي نائمة، بينما رجل البرميل، الذي صنعته في شكل يسوعي، بشعر طويل ولحية كثة، ينظر لي بعين واحدة مفتوحة. بقية الصور ساكنة، تلتزم بدورها كمنحوتات. مع غيمة السماء أتنبأ بالمطر، فأغطيها بأوراق الشجر. تتمدد التماثيل مع مجيء الليل وبالتزامن مع البرق والرعد.

مع منتصف الليل، وبينما أنا داخل الكوخ على وشك النوم، أسمع أصواتاً آدمية، تبدو كهمس رقيق، ودبات أرجل تتنقل بالتتابع، واحدة وراء أخرى. قبل أن يدفعني فضولي لمعرفة ما يحدث بالخارج، تسيطر عليّ الصورة تماماً، بحيث لا أتمكن من الإفلات منها، كأنها تعويذة تغلّف الجدران، وللفرار منها يجب الخضوع لها حتى تتم. أرى شارعاً يشبه السمكة البلطية، فوق أشواكها الجانبية تُقام بيوت لها شرفات من أجساد كلاب صفراء، ومناشر تجلس على أحبالها قطط بيضاء غزيرة الفرو، ويطل من بين فتحاتها نعاج وخراف ورؤوس بقرات بلا أجسام. البيوت متشابهة جداً، وكلما خطوتُ للأمام تيقنتُ من ذلك. عند بطن السمكة، التي وطأتها بجسدي الضخم، المبالغ في طوله وعرضه، أدبدب بقدميّ، ومع كل ضربة يخرج كائن من فمها. في البداية تخرج كائنات بشرية، صغيرة جداً كالأقزام، بعدها تظهر حيوانات أليفة، أثداؤها ممتلئة باللبن، وأُلفَتُها تثير شهوة الذبح. كلما تقدمتُ نحو فم السمكة، زادت المخلوقات، وانتشرتْ في غربة، حتى أصل للفم الذي، يا للمفاجأة، يدير فتحته ناحيتي ليلتهمني، وأنا أتساءل، أي تناقض يكمن في منح الحياة والموت معاً؟

اليوم الثاني

نسمة الهواء الصباحية توقظني، فأرى التماثيلَ، يا للعجب، تتحرّك في الجزيرة. أفرك عينيّ جيداً، وأنظر مرة أخرى. من شباك الكوخ الخشبي، أراقب خطواتها المتباطئة. سوداء بلون الطين الجاف. قصيرة ونحيفة، كما كانت حتى البارحة. تبدو تائهة. حائرة في أي اتجاه تسير. يلتقي كل منها بالآخر دون تبادل النظر. كل صورة تغوص في عالمها الخاص، كأنها تجتر ذكريات، أو ربما تتعرّف، بالنظر، على العالم الجديد.

أخرج من دهشتي وأنا أركض في العراء كمجذوب، لمّا أرى الأوراق التي كانت ترافق التماثيل تتناثر، يطيّرها الهواء بمجرد أن تحرّكتْ من أماكنها. أسير يميناً ويساراً وألملمها، أطويها وأحتفظ بها تحت إبطي لأقرأها بعد ذلك من حين لآخر، وأتذكّر بها ما قد يقع في حيّز النسيان. قد تكون هذه الأوراق هي تاريخ تماثيلي الوحيد، التي قد تخط لنفسها تاريخاً آخر بعيداً عما أعرفه.

أخطو نحو منحوتاتي. أراها متناثرة أيضاً كما الأوراق. تمثال يسير، وآخر يقف، وثالث يجلس، ورابع يرقد في جانب بعيد، وخامس يركض دون أن أدري إلى أين يريد أن يصل، وسادس يحفر في الأرض كأنه يبحث

عن عملة مفقودة. أراها بظهورها. تنظر إلى النهر كأنها تشتاق إلى مكوّنها. أمي كانت الأكثر جمالاً، تجلس بشعر مسترسل على ظهرها. شابة كما رأيتها دائماً. أقترب وأجلس بجانبها. يدها الصغيرة ترسم وجوهاً على الأرض. أضع يدي على يدها. ناعمة كما كانت. أقبّلها. فلا تلتفت صوبي. أفكّر في أن خطأً ما قد اقترفتُه أثناء التشكيل، أفترض أن أمي لا تراني ولا تسمعني، ولن تتحدث معي. أنظر إلى التماثيل الأخرى، أبي يرقد بوجهه للسماء، واضعاً ساقاً فوق أخرى؛ زوج أمي يقف منتصباً كممثل يؤدي دور الملك في مسرحية، دون أن يدري أن مكونات جسده لا تسمح إلا بدور التابع؛ بائعة اليانصيب تتجول كما التائهة، ربما تبحث عن رجل البرميل الذي يجلس القرفصاء في الجانب الشرقي، بالقرب من النهر. الرجل ذو القضيب المنتصب دائماً، يتشمم حفنة الطين ويواصل الحفر من جديد بأصابع يده الطويلة. أخمّنُ هوس التماثيل بإدراك المكان المحاط بالماء من كل جانب. أتحسس وجه أمي من جديد. أشم رائحة جسدها، فلا تصلني إلا رائحة الطين المجفف. أضع أذني على صدرها، أسمع دقات قلبها، فأتنفّس براحة.

أنهض فجأة وأركض نحو منحوتاتي. أظن أن الهمسات التي سمعتُها ليلاً ليست إلا مناوشات بين الريح وورقات الشجر (ودبّات الأرجل التي كانت تكسّر الأوراق المتساقطة، ماذا كانت؟ هل تحركت بعض التماثيل قبل بعضها الآخر؟ هل دار في ذهن إحداها سؤال عن من صنعها وجاء بحثاً عنه؟). أقترب من تمثال أبي وأتحسسه لأتيقن من الفكرة التي خطرت ببالي، أنتقل منه لتمثال زوج أمي، لبائعة اليانصيب، للرجل ذو

القضيب المنتصب دائماً، لرجل البرميل. أنظر في عيونها جميعاً، أقترب من أفواهها، أشم روائحها الطينية. خطئي أنني لم أشق حواسها. لم أفَتّح مسام جلدها، لم أثقب فتحاتها السفلية. ستبقى، بهذه الطريقة، كائنات منعزلة، بقلوب تنبض وأفواه مغلقة، بسؤال معلّق على طرف اللسان، ونظرة لا تتخطى الأهداب. ستشعر بالجوع دون أن ترى الثمرات، ولو رأتها لن تعثر على فتحة تعبر من خلالها للداخل، ولو دخلت ستبقى للأبد بلا مخرج، فتصبح الثمرة الجميلة في الخارج، تلك التي كانت سبباً في الحياة، كتلة سم في الداخل، محض موت مؤجل.

أبتعدُ عنها. أقفُ على مسافةٍ كافية لتأمُّلِها. ألومني على تسرّعي. لستُ إلا هذا النحات صاحب اليد المرتجفة. لم أكن أدري أن تماثيلي ستلتقط أرواحها الهائمة في السماء، هل حدث هذا فعلاً؟ أم أن التراب مع ماء النهر تفاعلا فتولدت روح جديدة، أو نفس الروح من جديد؟

أخلع ثيابي وأنزل للنهر وأسبح. مع موتها المؤقت، سأشق حواس تماثيلي، أفكّر. سأبلل جلدها بالماء ليكتسب نضارةً ولوناً، وليتفتّح. يخطر ببالي أنها ربما لا تكتفي بثمرات الأشجار وبلحات النخيل، ما يُحتّم عليّ تشكيل حيوانات نافعة.

أنام مع غروب الشمس، غير أنه نوم مشوش. أفتح عينيّ وأنظر إلى الماء، يُهيأ لي أن عروسةً جميلة تخرج من النهر، بيضاء جداً وطويلة وبضة، بعينين مسحوبتين لهما لون عصير التفاح، وواسعتين حد أنه، من خلالهما، يمكن العبور إلى روحها الشفّافة. تخرج عاريةً تماماً إلا

من قطرات على نهديها المنتصبين، وشعر أسود وطويل تلفه حول رقبتها. أتأملها جيداً وأصفّق لنحاتها، فالمسافة الدقيقة بين الكتفين مع استوائهما كسيف حاد، واستدارة النهدين بحلمتيهما الصغيرتين، كرأس رمح، تنتظران فماً غير مرئي، والبطن المستوية دون بروز إلا حول السرة، والجانبين المشدودين حولها، مع الوركين العريضين قليلاً، والمستندين على فخذين ملفوفين بخفة وملتحمين عبر ركبتين، مكسيتين ولهما شكل قلب، بساقين بلا عظم على ما يبدو، وأصابع قدمين طويلة كأصابع اليدين، كأنها ستعزف بها في التو، برهانٌ مرئي على يد ثابتة لنحات لا يعشق الجمال فحسب، بل ويقدّسه ويحترف صنعه. حتى الشق الطولي بين الفخذين أحمر كما الوردة. أثناء ذلك، أنتبه أنها خرجت من الماء لتستقر فوقه، وبعد دقائق تتراقص، تدور عدة دورات فأرى ظهرها المقسوم بخط رقيق، ومؤخرتها المكوّرة واللدنة، بالقناة التي تفصل بين الردفين وكأنها نهر بين هضبتين. تتمايل عروسة النهر للأمام وللخلف، يتساقط شعرها الملفوف حول رقبتها على صدرها فيداريه حيناً ويكشفه حيناً آخر، تتقاطع يداها فوق رأسها كضفيرة مرفوعة لأعلى، وتغطس تحت الماء وتخرج من جهة أخرى، بجسد مفرود على صفحة النهر، بقدمين تسبحان كفراشة، وعينين تنظران إليّ، بشوق، وتعانقاني، فأراني بين ذراعيها، عارياً يكسيني جسدها، ويمنحني دفئاً. تقبّلني بشفتين لهما طعم التفاح، وتلعق وجهي بلسان وردي. أرفعها من مؤخرتها اللدنة، فتعانق خصري بساقيها، ونصير واحداً، نتكامل كما ينبغي، وتتساقط العزلة من فوق جلدي، تذوب مع ماء النهر وتُصَب في البحر لتزيد مرارته. وفي لحظة الشبق تدغدغني

بين ذراعيها، ونستريح على صفحة الماء فأرى، من بين فخذيها، كائنات في حجم كف اليد تهرب وتتراقص، تحمل ملامح كل منا. أفتح عينيّ لأجدني راقداً في الجزء الغربي من الجزيرة، عارياً ومبللاً. الظلام قاحل جداً، والقمر محاق، وأشعر بالبرد.

أركض إلى الكوخ وأرتدي ملابسي. مع السكون، ونور الجزيرة الخافت، أتجوّل في صمتِ راع يتفقّد رعيتَه بقلق. أخطو خطوات ثقيلةً ومترددةً حد أنها تبدو لي متراجعةً أكثر منها متقدّمةً نحو هدف معلوم وجلي. أي رهبة تلك التي تسبق منح الآخرين حواسهم! يتردد في ذهني، قبل أن أصل لتمثالي الأول، سؤالٌ عن صفة للفعل الذي سأقوم به بعد لحظات: هل هو نعمة أم لعنة؟ بعض الشرور، في نهاية الأمر، لا يُمكن تجنبها لتستمر الحياة. أفكّر في أن الوقوفَ في منتصف الطريق مصيرٌ ملعونٌ. أردد بصوت مسموع أن اللعنات تكمن عادةً في أنصاف الأشياء. لو كنت مكان آدم لأكلتُ التفاحة كاملةً، ومددتُ يدي لتفاحات أخرى حتى أشبع، فماذا يضيرني من العقاب إن كنت قد اقترفتُ الخطيئة بمحض إرادتي. وما دام الطرد من الفردوس مصيري في كل الأحوال، فلما لا أتطرف في الحصول على متعتي.

أقترب أولاً من تمثال أمي. وبخشبة صغيرة في حجم عود الكبريت، أشق عينيها وفمها وفتحتي أنفها وأذنيها. وأفكّر قليلاً قبل أن أشق فتحةً سفلية(هذا المكان الذي خرجتُ منه للعالم)، وأثقب مؤخرتها بحيطة وألم. أسكب قليلاً من الماء على جسدها وأتحسس جلدها بكف يدي،

ثم أخطّط بأظافري خطوطاً طولية طفيفة. أنتقل بعدها من شرق الجزيرة لغربها، ماراً على كل التماثيل، فاعلاً نفس الشيء، غير أنني أتساءل أمام تمثال بائعة اليانصيب عن جدوى شق فم امرأة كانت خرساء، ما يدفعني لتوسيع فمها وصنع لسان طويل لها، فربما من خلاله تقول كل ما ودت أن تقوله في حياة سابقة. ومع رجل البرميل، المجاور لها، يخطر ببالي سؤالٌ مشابه عن رجل أصم، فأقرر بنفس الطريقة أن أضاعف دائرة أذنيه وأطيلهما بشكل ملفت، ليسمع كل ما لا يمكن للآخرين سماعه. وبعدها أردد كلمات تبدو ساذجة: هذا الفم سينطق، وهاتان الأذنان ستسمعان كل ما يدب على الأرض.

أترك تماثيلي في سلام، دون أن أدري إن كان بوسعها رؤية أحلام أم لا، وأي نوع من الأحلام يُمكن رؤيته. الحلم اختراق لما وراء الأفق، اطلاع على غيبيات أو إعادة تشكيل للمرئيات. بهذا المعنى، أي قدرة ستتمتع بها الأرواح الجديدة، أتساءل. أي عوالم يمكن أن تخترقها. فكرة النوم التي كانت تشغلني من قبل، هذه القطيعة مع الحياة الملموسة من أجل التواصل مع حياة مجردة، ستصير من الآن سؤالاً آخر جديداً فيما يخص منحوتاتي.

أقترب من الكوخ، غير متيقن إن كنتُ فعلتُ ما ينبغي أم اقترفتُ إثماً، وأفكّر في حيواتهم السابقة. الذاكرة لا تحتفظ بالأحداث مرقّمة كما ينبغي، وربما تبعثرها ما يجعل منها ذكريات، أفكّر. التسلسل صفة مرتبطة بالحاضر، وتمتد للمستقبل، في حين أن القطيعة شرخ بين ما كان وما

يكون. في العشق كما في الحياة، الغياب يصنع الذكرى، بينما الحضور امتداد لنفس الحدث. بتحرُّك تماثيلي، أصنع هذا الاتصال، أبعثهم من الموت فأنشيء جسوراً بين الماضي والحاضر، دون أن أعرف بأي ذكريات سيعودون.

أدخل الكوخ. أستلقي على ظهري. وقبل أن تمر دقائق، أرى أشياءً عجيبةً تحدث. أنظر من مكاني المنخفض، عبر النافذة المفتوحة، إلى السماء. تسيل دماءٌ بغزارة في شكل خيوط طولية لا متناهية، ومن هذه الخيوط تنشق مقاصل يقف على حافتها رجال ملتحون، قبيحون بشكل مرعب، يرفعون سيوفاً في الهواء فتتطاير رقاب تحمل جمالاً نقياً وبريئاً. مع كل ضربة سيف، تتحول الوجوه الملتحية، تتخذ أشكال حيوانات ضارية، أكثرها ألفة كانت الكلاب. في لحظة ما، تُكوّن المقاصلُ بيوتاً وتصير خيوطُ الدم الطولية أعمدةً خشبية ترتكز عليها سقوفٌ من الرقاب المتطايرة. يخرج منها ملتحون بظهورهم ويجرّون أجساداً خاضعة، منهكة حد الموت، يصلون بها إلى بحر أسود ويلقونها دون أن ينظروا إليها. كلما ألقوا بجسد خرج حياً من الضفة الأخرى، كأنه قد تعمّد، وتحوّل وصارت له لحية شبيهة بلحيتهم. ومع خطوات الأجساد في الأرض الجديدة، تكتسب ملامح وجوهها ملامح من عمّدوها، فيصير بعضها ثعلباً أو ذئباً أو حماراً، وتخرج لها ذيول، وكلما تقدّمت للأمام عثرت على من يشدها منها، ويلويها، بينما تبتسم في سعادة من يتطهر من دنسه. على ضفتيّ البحر الذي يشق السماء، تتكاثر البيوت وتتخذ أشكالاً مختلفة، يتكاثر

الشبيهون بالبشر دون أن ينتبهوا أن سُكّان الضفتين، رغم المسافة بينهم، امتداد لنفس الخط، حتى بيوتهم المختلفة في الشكل مشيّدة من نفس الأعمدة والسقوف.

اليوم الثالث

صحوتُ متأخراً على عكس العادة. النور يملأ الجزيرة والشمس ساطعة بقوة. أقف على باب الكوخ أتمطع وأنظر للبعيد، فأرى أمي بشعر مبلل كأنها خرجت من النهر في التو. وعلى مسافةٍ منها، تصنع بائعةُ اليانصيب شيئاً لا أتبينه. بعد دقائق، وبينما أفكّر كيفَ صارتْ حواسهم الآن، يقترب زوج أمي من أمي، مبتسماً، ويهمس لها بعبارة تضحكها. يتجولان معاً على ضفة النهر، وتلاحق الشمس جسديهما العاريين ويديهما المتشابكتين في ألفة. أتحرّك من مكاني وأتجه إليهما، فأُمُّر على بائعة اليانصيب وأراها تصنع من ورق الشجر ما يبدو لي غطاءً للجسد، وتُنشد، لتسلّي نفسها، أغنيةً لم أسمعها من قبل. أبتسم لها وأربت على ظهرها بينما أحييها. تلتفت وراءها، تبحث عني كأنها لا تراني. أحييها من جديد، فتفزع هذه المرة، وتنهض. تبحث عن الصوت، بينما أنا في محيطها. هل صارت المرأة الخرساء من قبل عمياء الآن؟ أي خطأ اقترفته هذه المرة حتى لا تراني؟ رجل البرميل يقترب مفزوعاً هو الآخر، يسير كمن يركض ليصل سريعاً. يسألها في رقة وحنو عما يخيفها. سمعتُ صوتاً يحييني ويسميني ببائعة اليانصيب، فالتفتُ دون أن أرى أحداً بالقرب مني. نظر إليها الرجل دون أن يدرك، وكيف كان هذا الصوت؟ سألها. هامساً كأنه

قادم من أرض أخرى بعيدة. كلاهما ينظر للآخر، ويراه. كلاهما يتحدث ويسمع. كلاهما يسكن في دائرة يحيط بها سياج لا يمكنني اجتيازه، كيف حدث هذا؟ أُحدِّثُ رجلَ البرميل، ألا تراني أنت الآخر يا رجل البرميل؟ فيكلّم المرأة مدهوشاً، الصوت الذي تحكين عنه سمعته، ويسميني برجل البرميل. أتركهما في ذهولهما، يتبادلان الأسئلة، ويبدآن التعارف. بينما تبتعد خطواتي، أرهف لهما السمع. تقول إنها وجدت نفسها هنا في الصباح دون أن تفهم كيف ولا من أين أتت، فيرد بأنه فتح عينيه وشعر بأن جسده ممزق، فظل راقداً في الشمس معتقداً أنها ستلحم أجزاء جسده، وأخيراً قرر النهوض، وحينها وجدتُكِ مذعورة تتلفتين حولكِ.

تسمّرتُ في مكاني وجذبني بداية الحوار. ما اسمُكَ؟ سألتْه. لا أعرف، ما اسمُكِ أنتِ؟ لا أعرف أيضاً، ولا أعرف شيئاً غير أنني هنا الآن. لكنك كنتِ تصنعين شيئاً! نعم، قالت، تحدثتُ مع هذه المرأة التي تجلس هناك، وأخبرتها أنني أشعر بالخجل لأنني عارية، فقالت لي إنها مثلي تشعر بنفس الخجل، فوعدتها أن أصنع لها من أوراق الشجر غطاءً لجسدينا. ولماذا يجب أن تغطي جسدك إن كان جميلاً؟ سأل الرجل. لأنه كذلك، ضحكتْ المرأة، بصراحة، أشعر بالخجل من أن يرى أحد جسدي، من نظراتك الآن، وأنت؟ ألا تشعر بالخجل؟ لا إطلاقاً، ربما بالغبطة لأنه يلفت انتباهك ويثيرك. لا لا، قالت، لا يلفت انتباهي ولا يثيرني، لكن شيئاً بداخلي يقول لي إن منطقةً بعينها لا ينبغي أن تكون مشاعاً للجميع. نفس الشيء يقول لي ما يقوله لك، لكنني أود أن أتمرد. بالسير عارياً؟ سألتْه مستغربةً. أو بالاختباء عارياً، لا أدري، فأنا أرى أن الجزيرة واسعة جداً،

بينما أريد شيئاً صغيراً يحتويني وأعيش بداخله. أتريد بيتاً؟ لا، أريد شيئاً ككهف أو مغارة في سقفها منفذ للضوء، أو كبرميل مثلاً أختبيء بداخله كما الجنين في الرحم. ماذا تقول؟ أقول ما أفكر فيه. أتذكر ما ناداك به الصوت الخفي منذ قليل؟ انتبه الرجل ونظر إليها مذهولاً، نعم، قال، ناداني برجل البرميل. أيعني ذلك شيئاً بالنسبة لك؟ نظر إليها مرتبكاً، أتقصدين أنه يقرأ رغباتنا؟ جلستْ المرأة في مكانها وسترتْ فرجها بيديها، فجلس الرجل بجانبها دون أن يهتم بستر عورته، أو أنه، قالت، يعرف مستقبلنا. أو ماضينا؟ سأل متردداً. نحن لا نعرف شيئاً عن ماضينا، قالت. لكن لابد أن لنا ماضياً، أجابها جازماً. من أين تعرف ذلك؟ من هذه المعرفة التي نحملها، أسماء الأشياء، كيفية الحركة، تفكيرنا. ربما تكون محقاً، قالت، فأنا أشعر أنني أعرفك. ابتسم لها الرجل، وأنا كذلك. أنا لا أغازلك، أقول الحقيقة فحسب. بالطبع، وأنا أقول نفس الحقيقة، لكن بشيء من الغبطة. لماذا؟ سألتْ المرأة. لأنني التقيتك من جديد دون أن أتذكر أين ولا متى عرفتك. بعيداً عن هذا، قالت، من يكون هذا الصوت. لا أعرف، ولا أعرف لماذا لا يظهر، أم أنه مجرد وهم؟ ليس بوسعي أن أجزم بشيء الآن، قالت. وأنا مثلك.

أسير بعيداً عنهما وأفكر، كيف أكون موجوداً دون أن يروني؟ أنا لا أفهم منحوتاتي في الحقيقة، هل من الممكن أن تصير بلا ذكريات؟ كيف سيكون مصير كل منها إذن؟ أنظر إلى أمي وزوج أمي اللذين يتجولان الآن على ضفاف النهر في ألفة، يتبادلان الحديث كمن يتعارفا للمرة الأولى أو كمن التقيا بعد سنوات من الغياب. أنا الآن قريب منهما، أسمع همسهما،

وتصلني محبتهما. غير أنني لا أفهم ما يحدث، أو لا أود فهمه. ما أراه لم أعرفه من قبل ولم أكن أتوقعه.

أضع ذراعي على كتف أمي وأضمها لي، تتوسد صدري باستسلام كأنها شعرت بي وشمّتْ رائحتي. أنتِ حالمة جداً يا سيدتي، يقول زوج أمي. تنتبه وتنظر إليه في اضطراب، شعرتُ أنك تعانقني، وشممتُ فيك رائحةً أعرفها لا أدري كيف، غير أنها رائحةٌ محببة إلى نفسي. إنه أنا يا أمي، كيف التبس عليكِ الأمر، أقول لها صارخاً. تنتفض من مكانها وتنهض، أنا أعرف هذا الصوت أيضاً، لكن من أين يأتي؟ تسأل الفراغ الذي أقف فيه دون أن تراني، بينما يردد الرجل كلمات لا أنتبه لها، ويقترب منها حاضناً خديها بيديه. تهدأ قليلاً ثم تعانقه بشدة، كأنها تبحث عن رائحتي من جديد، وسريعاً ما تفارقه، أعرف هذه الرائحة كذلك، لكنها ليست الرائحة التي شممتُ منذ لحظات. أنا لم أعانقك منذ لحظات يا امرأة! قال زوج أمي. بل حدث. ربما خُيّل إليكِ عندما قلتُ إنني أشعر بك قريبة جداً مني، وإنني لا أصدق أنها المرة الأولى التي أراكِ. أصدّق ما تقوله يا رجل، وأشعر بك قريباً من نفسي، لكنني على يقين أن حضناً آخر ضمني، ثم ماذا عن الصوت الذي سمعته؟ سألتْ. لم أسمع أي صوت. ثمة صوت ناداني بأمي. كيف ذلك؟ هل لكِ أبناء؟ إنه أنا يا عمي، ألا تسمعنى، تدخلتُ حتى لا يظنها مجنونة، وحتى أتيقن أنه لا يسمعنى إلا من أوجّه له الحديث. لم يلتفت إلى مصدر الصوت مفزوعاً كما توقعتُ، لم يقل: سمعتُ صوتاً أعرفه غير أنه يبدو قادماً من بعيد، لكنه نظر إلى الفراغ. صدّقتني الآن! قالت منتصرة. صدّقتُ ماذا؟ أنا لم أسمع ما يُخيل

إليكِ.. لكن من سيكون؟ سألها. لا أعرف سوى أنه صوت مألوف لي، مثل صوتك وملامحك. ولماذا لا نراه؟ لا أعرف صدّقني. ابتعد عنها قليلاً وسار عدة خطوات وهو ينظر إلى النهر، إلى السماء، أيكون صوت الريح؟ خرير الماء؟ حركة السحاب؟ تساءل بصوت هامس. ثم التفت لها وسأل، منذ متى وأنتِ هنا؟ فتحتُ عينيّ في الصباح فوجدتني هنا، ولا أذكر من أين جئتُ، أجابته، وأنت؟ أنا مثلك، غير أنني انتبهتُ وأنا أتجول في الجزيرة لآثار أقدام، كانت في اتجاهات مختلفة فتتبعتُ بعضها، وكانت إحدى هذه الآثار لي، فلم أفهم متى مشيتُ. يبدو أن وجودنا في هذه الجزيرة سيكون لغزاً، قالت. يُهيأ لي أننا سريعاً ما سننسى هذه الأسئلة لننشغل بأشياء أخرى.

لا يُمكنني أن أتنبأ بما ستكون عليه منحوتاتي، كما لا يمكنني، بنفس الطريقة، أن أعتمد على ماضيها لتخيُّل مستقبلها. لا أظن أن اللقاء الأول بين زوج أمي وأمي في حياتهما السابقة، وكذلك بائعة اليانصيب ورجل البرميل، قد طرح سؤالاً عن صوت ما، لذلك، لن يكون بوسعي أن أعتبر ما كتبته عنهم خطاً قاطعاً ينبغي أن تسير عليه خطواتهم بشكل قدري. وكنحات يهتم بتماثيله، ويحاول إدراكها في نفس الوقت، سيتحتم عليّ أن أسجّل حيواتهم من جديد، دون أن أتجاهل سلطة الروح التي ظهرت علاماتها بالطبع، والتي لا أعتقد أن بمقدرتهم الفرار منها.

أقطف ثمرةً وأفركها بيدي وآكلها وأنا أسير بين جنبات الجزيرة. الرجل ذو القضيب المنتصب دائماً يتبادل النقاش بحدة مع أبي، وما أن

أقترب منهما حتى يفترقا، ويسير كل منهما في طريق. يبدو الأول حاداً جداً، ربما لهذا السبب تحديداً كان الثاني يلومه، فأبي، في نهاية الأمر، يحمل صفات الفنان المتعالي على البذاءات وإن وجد لها مبرراً. لستُ على يقين من شيء، يجب أن أعترف لنفسي أنني في طور التعرف على منحوتاتي، وما كانوا عليه من قبل، ينبغي أن أسلّم بذلك، ليس برهاناً على ما سيكون. أم أن بداخل كل منا شخصيات مختلفة، ولا يظهر في النهاية إلا من نريد له الظهور بينما تختبيء الأخريات في ركن ما؟ كان زوج أمي يقول دائماً إن التمثيل محاولة جادة لاستخراج كل الأرواح البشرية من أعماق النفس، وكان أكثر المؤمنين بأننا نكون ما نريده. بهذه الطريقة كان يلغي تماماً الصفات الوراثية فيما يخص الطبائع والميول والفطنة، مؤمناً أكثر بالرغبة الخاصة. كان يرى أن بداخل كل منا ممثلٌ عظيمٌ، فقط يحتاج لمن يفتح له النافذة ليعبّر عن نفسه بجرأة. وذات مرة فجّر مفاجأة جديدة، اعتبرتها حينها محض هذيان، قال إن بوسع الإنسان أن يتخلى عن كل نقائصه، وعما يلتصق به من صفات حيوانية. والملفت أن كلماته كانت عقيدته، فكان يتسامى على الصغائر كملاك، دون أن يدري أن من هذه الصغائر تتكوّن إنسانيتنا.

بلا أمل في أن يراني أي منهما، مررتُ بجوارهما بالتتابع. الرجل ذو القضيب المنتصب دائماً يسير بزهو، وينظر إلى الجزيرة كأنه مالكها. أظن أنه يشعر بقوته، ويفكّر كيف يفرض سيطرته على الباقين. بمجرد أن أصبحتُ بجواره، فقدتُ الرغبة في الحديث إليه. في المقابل، وجدتني أركض إلى أبي، وأناديه، يا أبي، كم أفتقدك. الغريبة أنه لم يُذهل مثل

الآخرين، بل أجابني بكل هدوء، أنا بخير. ألا تتذكرني؟ لا، أجابني. أدركتُ أن ما أرتكبه حماقة لن أحصد من ورائها شيئاً.

أسير صوب النهر وأنا أشعر بالهزيمة، أقرر أن أغسل من على جسدي خزي أن أصنعَ منحوتات تسمعُني ولا تراني دون أن أفهمَ أين الخطأ. أتكون المادةُ التي أنا مكوّنٌ منها مختلفةً عن المادة التي كَوّنتُ منها منحوتاتي؟ لأنني من صلصال وهي من طين؟ لأنني من ماء بحر وهي من ماء نهر؟ أتساءل. أغلب الظن أنني خارج مجال رؤيتها، لهذا لا يصلها مني سوى صوت من بعيد. وربما لأن ضخامة جسدي فوق تحمّلها، لا تستطيع بؤبؤات عيونها أن تلتقطني. هذيان. ما يلهج به لساني من عبارات ليس إلا محض هذيان، وما من شيء يتمخض عن هذه الأجوبة إلا أسئلة أخرى، أكثر تعقيداً. أجلس على الضفة، وعلى صفحة الماء أرى عروسة النهر تتراقص، تغريني وتثير رغبتي. أخلع ملابسي وأسبح، أطاردها كي أمسك بها، وكلما فعلتُ أفلتتْ من بين يديّ. أغطس وأشدها من قدمها، أتسلق جسدها البض المفرود كسمكة، أتزحلق عليها كلعبة طفولية، وأتشقلب في الماء عدة مرات. أخرج وأرقد على الضفة عارياً تحت الشمس، وبعد أن يجف شعري وجسدي، أنتبه أنني لا أجد ملابسي ولا نعليّ. كيف حدث ذلك، أردد مصعوقاً. أتجول في الجزيرة، وفي العودة أرى بائعة اليانصيب لا تزال تصنع من أوراق الشجر ثياباً، وأبي يسير من مكان إلى آخر مسرعاً كمن يبحث عن شيء، وأمي تأكل تفاحة، وزوج أمي يقف من بعيد ويطل بوجل على ما يحدث. فقط الرجل ذو القضيب المنتصب دائماً ورجل البرميل يغيبان عن المشهد.

اليوم الرابع

الجزيرةُ ساكنة تماماً إلا من خرير ماء النهر، وضوءُ النهار لم يشق الليل بعد. أنظر حولي وأتساءل عن معنى الوجود لو لم أكن مرئياً. تماثيلي خيّبتْ آمالي في أول اختبار لها، وستُخيب آمالي في نهاية المطاف لأنها ستحقق ما تريده بمعزل عني. من المضحك أن تكون بدايتها أسوأ مما أتوقّع، لقد سرقت إحداها ثيابي ونعليّ، يا للخزي.

سأفعل ما فكّرتُ فيه من قبل، ليس فقط لأن عروسة النهر تثير شغفي، بل أيضاً لتملأ وحدتي، لتكون شريكتي ورفيقتي، ولأتأمل معها ما سيحدث حولي. لا أعرف إن كانت ستبصرني أم أن العمى ناحيتي سيصيبها. ولأتجنب ما أظنه خطأً، سأصنعها من صلصال، وستكون سلوتي في كل الأحوال أنها ستسمعني.

أفتح جوالاً كبيراً وأستخرج منه بعض الصلصال لأختبره، أفركه بيدي متحسساً ملمسه، وأصب عليه بعض الماء وأعجنه ليصبح لدناً. أصنع من القطعة الأولى أصابع عازفة بيانو، ويداً نحيفة. أتفاءل، وأقطع ترددي بالشروع في صنع تمثال عروستي.

أحمل الجوال على ظهري وأتجه إلى أبعد ركن لا يمكن لأحد الوصول إليه، والذي، بعد تحرّك التماثيل، سيصير مكاناً آمنا لكل ما أصنعه. أرسم بخشبة نحيفة صورةً كبيرة لعروسة النهر على الأرض، أجعلها أكبر حجماً من تماثيلي الأخرى. أفكّر في أن أجعلها في نفس الحجم والشكل الذي رأيته، لكنني أعرف أن ذلك لن يتحقق. لا أمتلك، أولاً، الخامات الكافية، ولا أمتلك، ثانياً، القدرة على صناعة تمثال بهذه الروعة. سأحاول قدر استطاعتي أن أصنع ما احتفظت به الذاكرة وما تسمح به الموهبة، مع إيماني أن طموح الفنان لا ينبغي أن يتعدى قدراته، فلو حدث ذلك، سيكون أرضاً خصبة للإحباطات. الفنانون نفوس هشّة، لا يستمتعون بالحياة بقدر ما يشغلهم الموت، ولا يصنعون خلودهم إلا من نفس المادة التي يتقون بها فكرة الانتحار.

أعجن الصلصال بالماء أولاً وأشرع في تشكيل الساق والركبة والفخذ، ثم القدم. أصنع الخصر بتدويرته وأشق الفرج شقاً طولياً رقيقاً. أشعر من جديد بمتعة الخلق، وأستحضر اللحظة التي فيها تمددت عروسة النهر على صفحة الماء. أرسم بطناً تشبه وادياً منخفضاً به نتوء رقيق يعلوه فوهة بئر ضيقة، ونهدين بضين ومستديرين، وأصعد متوسعاً لصنع كتفين عريضين، مستويين، بينهما فرائص مكسية. أتوقف هنا وأصنع ذراعين، وأركّب اليد النحيفة بأصابع عازفة البيانو بعد أن أبللها بالماء من جديد، وأصنع أخرى. أكوّر قطعة صلصال جديدة. أفركها بين كفيّ حتى تأخذ شكلاً مستقيماً لتكون رقبة طويلة، فأركّبها في مكانها وأشرع في صنع الوجه. أنظر إلى الأرض التي رسمتُ عليها عروسة النهر، وأتأمل ملامحها بينما أسترجع

نفس الصورة عندما كانت في لحظة الشبق (أفكّر في أن المرأة تصل لقمة الجمال وغايته في هذه اللحظة). أشق الحواس جميعها، وأثقب فتحات الجسد على مهل. أرسم لها شعراً أسود بقلم خشبي، وألوّن فرجها بالأحمر ليكون أكثر إبهاراً وحياةً. أقف على مسافة من التمثال وأفكّر، الجسد يشبه انقسامات العالم، الرأس إله، والرقبة رسالته التي ما إن تصل لمنتهاها حتى تتفرّع إلى ذراعين، تسير في طريقين طويلين ومتوازيين، يتفرّعان من جديد إلى خمسة أفرع. في المقابل، الامتداد الطبيعي للرقبة هو الصدر والبطن والعضو الجنسي، هو امتداد للإله أيضاً، وما خُلِقتْ الساقان إلا لتهيأة الراحة لهذا الجزء خصوصاً من الجسد. تفرعات الرقبة لليمين واليسار محض ضلال، بعد عن الطريق الممهد.

أرقد على ظهري وأنظر إلى السماء. ملونة ومبهجة. الشمس في طريقها لغزو الجزيرة، بضياء دافيء. والهواء نقي ومنعش، وقلبي يختلج وأنا أتأمّل الصورة الجديدة. أنهض مجدداً وأرش الماء على عروستي. أتحسس ساقيها وأضغط عليهما من جديد لأهبهما الحرارة، أنتقل إلى بقية أجزائها، أطوّق الخصر بين سبابة وإبهام، وأسوّي البطن بأربعة أصابع متجاورة. أقبض على النهدين بيد رقيقة لأقولّب الاستدارة والبروز، وأداعب الحلمتين برفق. أفكّر في أن البطنَ والقلبَ منبعُ الروح، فأريح راحة يديّ هناك لتكون روحاً أكثر دفئاً. أمسح عن الحاجبين والجبهة ما علق بها من زوائد، وأملّس بإبهامي على الخدين ليتورّدا. كم أنتِ جميلة يا عروسة النهر، أقول بابتهال وأنا أتأملها. ثم بخشبة في حجم عود الكبريت، أفتح مسام جلدها ليتنفّس جسدها، وأنفض الصلصال الزائد من

فوق الكتفين وراحة اليدين.

أتنفّس كأني أسحب هواء العالم لداخلي، وأشعر أن صدري يسع الكون بأكمله. بعد ساعات من الآن، بعد أن تسطع الشمس بسخونتها وتجفف التمثال الجديد، سيكون لي في الصباح التالي رفيقة، أتحدّث معها بصوت مسموع، أنظر إليها وتنظر إليّ بحب وبرغبة. ربما تكون الوسيط بيني وبين تماثيلي، وقد تكون أماً لأبناء طالما انتظرتُ مجيئهم. سأحكي لها في ليلة صافية، بينما أعانقها تحت قمر مكتمل، لماذا هجرتُ من العالم الأول وأنشأتُ، دون قصد من جانبي، عالماً جديداً.

أجمع في الجوال ما تبقى من صلصال قليل، وأضع بداخله الألوان والأزميل الذي لم أستخدمه، وأترك مع التمثال بعض خشبات تطوّقه كقالب. وبينما أهم بالرحيل، يخطر ببالي أن هذا المكان، رغم أنه قصي، إلا أن من الحيطة ألا أستريح تماماً لهذه الفكرة. أتردد ما بين أن أحفر حفراً أو أطوّق التمثال بسور من الحجارة. في الحالة الأولى، أخاف أن تسقط إحدى منحوتاتي، بسبب فضولها، فيصيبها الأذى؛ وفي الحالة الثانية، بسبب الفضول أيضاً، قد تفكر إحداها في تسلق الجدار فيؤدي ذلك إلى سقوط بعض الحجارة على التمثال الجديد فيصيبه التشوه. ما بين الخوف على من دبت فيه الحياة ومن ينتظرها، أقرر أن أبقى كحارس لعروسة النهر.

أترك جوالي على بعد أمتار من الصورة وأخلع ثيابي لأغسلها من أثر الصلصال بماء النهر. أنشرها بعد ذلك على بعض الحجارة، وأنزل

لأسبح قليلاً في هذا الصباح الدافيء. أبتسم لمّا أفكّر أني غداً سأسبح مع حوريتي، وألعب معها في نفس هذا الماء، وأن المشاهد التي تخيلتها من قبل سألمسها بأصابعي.

أخرج مبللاً وأجلس على الضفة عارياً. (ميزة أن أكون غير مرئي أن أفعل ما أريد بحريتي). أستنشق بنشوة نسيماً عابراً وأتلقى الهواء على جسدي برجفة محببة. أنظر إلى الصورة بجواري بروح مختلجة، وأفكر في أنها لم يكن لها حكاية سابقة مثل بقية الصور. هل يُمكن ألا تراها التماثيل الأخرى لتكون لي بمفردي؟ هل اختلاف مادة الصنع ستكون سبباً وجيهاً لسعادتي الأبدية؟ في أي خط يمكنني أن أتوقع أن تسير حياتها؟ لا ينبغي أن أتشاءم من مصائر تماثيلي، ولا أن أفقدَ الأملَ في إدراكي لأفعالها، فلا زالت في أيامها الأولى، تستكشف المكان. الصُناع في الحقيقة أكثر تسامحاً مع صنيعتهم، بل وحباً. والنحاتون بالضرورة أكثر عشقاً لتماثيلهم، خاصةً تلك التماثيل التي تتحرّك وتختار بإرادتها أفعالها. أعلم في قرارة نفسي أنني لست هذا النحات الذي يغضب من منحوتاته، ورغم حزني أنها لا تراني إلا أن غبطةً ما تسبر أعماقي كلما سألوا عني وشاهدتهم يتجادلون حول وجودي. الأنداد يتعاركون لأنهم أنداد، لأن أحدهم يود أن يثبت للآخر، أو للآخرين، أنه الأكثر كمالاً. أنا لستُ نداً لتلك التماثيل، بل الحقيقة التي أعرفها أنهم متساوون في النقصان. في لحظات مثل هذه، أشعر فيها بصفاء الروح واسترخاء الجسد، أعترف لنفسي أنني لم أهيئ الجزيرة بشكل كافٍ لاستقبال ضيوف جدد، وأن مهمتهم في صنع الراحة لأنفسهم قد تستغرق أعماراً متتالية.

أرتدي ثيابي وأقترب أكثر من صورة العروسة. أجلس في مواجهتها كمن يجلس أمام مريض ينتظر شفاءه ليواصل معه الحياة. لن يكون لك، يا عروستي، حكايةً سابقة تكررينها في هذا العالم، غير أني أود أن تكوني متمردة على ما هربتُ منه ذات يوم، وما جعلني أنشيء تماثيل لمن تعذبوا أمام عيني في حياتهم الأولى. ربما لذلك أود أن أحكي لك حكايات، كما أود أن أسليكِ.

سأشرع الآن فوراً، مع اشتداد القيظ وتولي النسيم، في تعليمك الحروف. أريد، برغبة أقرب للحلم، أن أصب في أذنيكِ الكلمات لتنصهر مع الصلصال والماء. الأبجدية يا عروستي أن نشتق من الثمان وعشرين حرفاً عدداً لا حصر له من الكلمات، والعبارات، وأن نجيد من خلالها قول ما يدور بأذهاننا بشكل مرتب. أتعرفين، يا جميلتي، أن الفروقات بين بعض الناس وبعضها الآخر لا يكمن في أحيان كثيرة سوى في لباقة استخدام هذه المفردات واختراع دلالات جديدة لها. فلنبدأ بتعليم أسماء الأشياء، وبالحروف التي تكوّن كل مفردة، ثم نُدخِل فعلاً على هذه المفردة. القراءة، يا عروستي، شيء مقدس، فهي طريقة التواصل مع الآلهة والبشر، وهي الأمل المتبقي لنصير أكثر تسامحاً مع المختلفين معنا. ربما تتساءلين الآن، بينما تتكوّن الروح بقلبك، عن الغرض من وراء ذلك. غرضي بكل جلاء أن نتبادل معاً قراءة تاريخ التماثيل التي ستصير جاراتك بعد قليل.

الشمس المتعامدة ستسوي عروسة النهر سريعاً، هي بهذه الطريقة أفضل من النار وأكثر فاعلية. أظن أنها بحلول الليل ستبدأ في حركتها، وقد تبدأ جائعة. أي شيء يمكن أن يغذيها؟ لن تكون الثمرات كافية لجسدها الممشوق، وربما تذبل مع مرور الأيام. أفكّر في أنها ستحتاج إلى لحم طيب، إلى سمكات النهر أحياناً وإلى لحوم حيوانات في أحيان أخرى. أنهض من جوارها وأسحب الدلو وأدليه في النهر. أستخرج ماءً وأراكِم بعض التراب، أشق الأرض بفأس وأجمع الطين. صنيعتي الآن، بينما أنتظر إفاقة الروح في جسدها، ستكون حفنة من الخراف والنعاج والديوك والدجاج.

أجلس على ركبتيّ وأعجن التراب والطين بالماء. أشكّل رجلين نحيلتين لخروف، في وسط كل منهما دائرةً بارزة في حجم إصبع، هي الركبة، ثم أصنع الجسمَ ببطن منتفخة وظهر متعرج قليلاً، وأشكّل الرجلين الأخريين بتأنٍ أكبر. أتوقف، بكتلة طين بين راحتيّ، أمام الرأس. أفكّر في معنى الذبح، إراقة الدماء. أسترجع مشاهد لم أستوعب فيها كيف يكون الدم قرباناً لإله ما، أي إله عنيف هذا الذي صوره المتحدثون باسمه! لا يخلو الذبح من قسوة، ومن حكمة بنفس المقدار. إزهاق الروح ولو كانت لحيوان أو طائر، اللون الأحمر المسال على جانبيه، نظرة الرعب الأخيرة، التي لا تحمل خوفاً من الموت بقدر ما تحمل توسلاً لإيقاف الألم، لا يُمكن أن تُسمى بغير القسوة، ثم من منّا بقدرته النظر في عينيّ حيوان أثناء الذبح! مع ذلك، يُمكن من الذبح استخلاص حكمةٍ وحيدة: كي تعيش يجب أن يموت الآخرون. ليس فقط لأنهم يشغلون حيزاً تريد أن تشغله

بمفردك، بل أيضاً لأن لحمك كي ينمو يجب أن يأكل لحم الآخر. بهذه الحكمة الأزلية أستطيع تفسير كل المذابح في حياة البشر، واستيعاب كل المقاصل التي شاهدتها من قبل، والمُعَدّة سلفاً للمختلفين. غير أن ثمة مذابح لا تعني شيئاً سوى العنف بلا طائل، وربما يكون الطائل محض متعة فحسب، أو لعله الخضوع لعلامة غيبية مجهولة تحمل من الغموض ما تحمله من الجلاء. بهذا المعنى أدرك نية أب وعزيمته لذبح ابنه لمجرد رؤية، فيكون ذبح حيوان في نهاية الأمر وسيلةً لإنقاذ البراءة.

سأفكّر، كنحات لا يحمل صفات إلهية، أن الحيوانات والطيور التي أشكّلها بيدي قد تكون وسيلةً لإنقاذ دماءٍ أخرى، سواء كانت قديمةً أم جديدة. ورغم أنني لا أصدق تماماً ما أقوله، وأعلم أنه محض تبرير حتى لا أحرم منحوتاتي من متعة الطعام، إلا أنني أشرع في صب الماء على التراب من جديد لأكوّن رأس أول خروف أصنعه، وأرسم ملامح وجهه التي، دوماً رأيتها هكذا، تحمل طيبةً لا نهائية.

أرقد على الأرض تحت شجرة مثمرة وأنظر للسماء الملتهبة. أداري جبهتي بظهر يدي اليسرى بينما أفرك الطين من الأخرى. أرى في غفوتي كوخي البسيط يتحوّل لمكان هائل ومزين بألوان مبهجة، يدخله أناس لا أعرفهم، في صفوف ينظّمها أحدهم، بينما تسعى عروسة النهر لمنعهم دون جدوى. أفتح عينيّ على منظر دماء ترشح على جدران الكوخ، دون أن أفهم ماذا يجري بالداخل. أنهض وأدنو أكثر من النهر، أنظر فيه بحثاً عن وجهي القلق، فلا أجد صورتي معكوسةً هناك. أنزل لأسبح من

جديد، لأزيل كذلك بقايا الطين من فوق جسدي، وأتركني على سطح الماء كغريق.

بينما أقف تحت الشمس، يخطر ببالي أن أحضر أوراقي من الكوخ، وأقرأها على عروستي التي ستلتقي بالحياة بعد ساعات قليلة. أريد أن أنحت نبرة صوتي بين جنبات جسدها، وأن يكون وجهي أول ما تراه في العالم. أريد كذلك ارتداء ثياب أخرى، نظيفة، وإحضار ثوب يناسب البيات في العراء. أريد، ولا أدري تحديداً عدد الأشياء التي سأريدها لمّا تتحرك الروح في جسدها، أن تراني في أبهى صورة، الأكثر إشراقاً من الشمس. هل ستلاحظ أنني رجل أربعيني رغم شعري الأسود الناعم والكثيف وبطني المشدودة؟ هل سترى في عينيّ الشاردتين سحراً يأسرها؟ وهل ستروق لها نبرة صوتي وأنا أحكي لها حكايةً طويلة في كل ليلة؟

تفتح خطواتي طريقاً إلى كوخي، فأراقب أثناء سيري حركات منحوتاتي. بائعة اليانصيب تجمع الثمرات في سلة، تتسلق الشجرة بحركة ميكانيكية شبه تلقائية، تدعك كل ثمرة بيدها قبل أن تضعها في مستقرها. أبي يجمع الأحجار من أنحاء شتى، يبدو أنه ينوي تشييد بيت، ويبدو عليه الإنهاك من أثر القيظ. أمي تجلس على مسافة منه، تراقبه بعينيها دون أن تعطي أي انطباع، وتختبيء من الشمس تحت شجرة مثمرة. زوج أمي يتجول حولها، ناظراً إليها بولَهٍ. هذا الرجل يبدو عاشقاً للحياة، حد أن روحه تتراقص خارج جسده الهاديء. لا يزال رجل البرميل مختبئاً، كذلك الرجل ذو القضيب المنتصب دائماً، الذي صار، منذ استرد الحياة،

بعضو متراخ. لا أعرف سبباً لاختفائهما معاً، ولا أدري إن كانا معاً أم أن كلاً منهما فًي مكان مستقل. ما أعرفه، دون فطنة في ذلك، أن أحدهما سرق ثيابي، دون أن أفهم كيف يمكنه استخدامها مع الفرق الكبير بين جسدينا. الشمس حارقة، ومنحوتاتي تبدو منهكة، لولا الهواء الرطب الذي يبعث به النهر لصارت الجزيرة جحيماً. كوخي النائي أصبح على بعد خطوات، والعرق يتصبب من جبهتي إلى عينيّ. أدخل إلى مستقري فأراه معتماً، فأبقى لحظات حتى يعتاد بصري المكان. بعد أن أرتاح قليلاً، أبحث بتوجس عن حكايات التماثيل. ليست فوق السرير، ولا تحته. ليست بجانب السرير ولا تحت النافذة. ليست في أي مكان. أي يد ملعونة سرقتْ تاريخ تماثيلي، وبماذا سيفيدها؟ أنتبه في هذه اللحظة أن ملابسي المنثورة على السرير تشي بيد عابثة اقتحمت مستقري، وهذا يعني أن الكوخ أصبح مقصداً. أفكر، هل سيتحتم عليّ من جديد أن أدوّن التاريخ.. لا أدري، ولا يمكنني أن أحسم أمري الآن، في هذه اللحظة التي أسعى فيها بتمهل لفهم ماذا تريد منحوتاتي، وفي أي شيء تفكّر. تحت جريد النخل أعثر على أوراق اليوميات، أفرح وأتساءل لماذا لم أضم إليها حكايات التماثيل..ألوم نفسي وأدافع عن خطئي بأنني لم أكن أتوقع ما حدث. أتساءل: كم عدد الأشياء التي ستحدث دون توقعها ستضرني في مأمني؟

أحمل يومياتي وأوراقاً أخرى بيضاء وقلماً وثوباً، وأخرج مغلقاً باب الكوخ من أعلاه بعصا نحيلة. بعد أن أخطو عدة خطوات، أرتاب في اختفاء بعض ثيابي، غير أنني أتكاسل عن العودة لأتيقن. يشغلني الآن

كشف من يتتبع أثري، ومعرفة أية نية يضمرها لجيرانه من المنحوتات.

أصل إلى مركز الجزيرة بينما تميل الشمس قليلاً ويتلطف لهيبها. تماثيلي ترقد تحت ظلال الأشجار، بعورات مستترة، تستمتع بنسائم عابرة تداعب وجوهها المتعبة. الآن يظهر، من بعيد، الرجل ذو القضيب المنتصب دائماً. يرتدي ثوبي الذي كيّفه على جسده الصغير. يسير متباهياً، ينظر إلى التماثيل الأخرى نظرات متعالية، ويقترب منها مزهواً. ما أن يشاهده الراقدون يدنو، حتى ينهضوا بحماس. يلتفون حوله. يتحدثون كمن يرجون منه شيئاً. يربت على أكتافهم ويعدهم بابتسامة، ثم يرحل في مرح، بينما يعاودون الاسترخاء من جديد، بوجوه خائبة. شيء ما حدث من وراء ظهري، وقت انشغالي بصنيعتي الجديدة. أرغب في الاقتراب من أمي لأقبّلها وأسألها، غير أن الرعب الذي أبثه فيها، بجانب حيرة عينيها، يدفعني للتردد. بائعة اليانصيب، إذن. لقد لاحظتُ في المرات السابقة، كما ألاحظ الآن، أن لسانها لا يكف عن الحركة ولا يتخلى عن الكلام. ماذا يحدث يا امرأة؟ أتجنب مناداتها ببائعة اليانصيب حتى لا تفزع. الرجل الخارق وعدنا بإحضار ثياب لنا نستر بها أجسادنا، أجابتني دون أن تنظر لمصدر الصوت. في مقابل ماذا؟ سألتها. أن يقدم له كل منا ما يستطيع، أنا مثلاً سأعد له الثمرات ليأكلها، ولا أذكر ما سيقدمه الآخرون. الدهشة تدفعني للضحك، فلا أتماسك رغم محاولتي، لتنطلق مني قهقهة مدوية. الرجل سرق ثوبي ومزقه لقطع بحجم أجسادهم وسيمنحه لهم مقابل أن يكون سيداً عليهم، أي احتيال! يبدو أن منحوتاتي ستسليني وتقدم لي الفكاهة. دوي ضحكتي أرعب بائعة اليانصيب، فانكمشتْ، ونظرتْ إلى

رجل البرميل الذي كان مختبئاً والآن يقترب، ولابد أنه، لكبر أذنيه، قد سمع ما تفوهتُ به، هكذا التزم الصمت قليلاً متأملاً عباراتي. هل أنت من كنت تحدثني؟ تسأله المرأة. لا، لكنني سمعتُ الصوت الذي كان يحدثكِ. تنظر إليه المرأة مستغربة، كيف لا والصوت طبق الأصل من صوتك، لقد انتبهتُ لذلك هذه المرة. أبتعد وأتركهما، يلاحقني رجل البرميل دون أن يراني، ويسألني، مِن مَن سرق الرجل الخارق الثياب؟ تساءل بصوت مسموع. مني أنا يا رجل، أجبته. ومن أنت؟ أنا الواقف أمامك. أنا لا أرى أحداً. وأنا لا أعرف لماذا لا تراني. مع مَن تتحدث يا حبيبي؟ تسأله المرأة. مع الصوت الذي نسمعه. إنه صوتك. ينظر إليها مذهولاً، كيف يكون صوتي وأنا أسمعه؟ لا داعي لتشغل بالك يا حبيبي، فما لا نعرفه اليوم سنعرفه غداً بالضرورة. داعب رجل البرميل شعرها وقبّلها، فانصرفتُ في صمت وأنا لا أدري هل من الخير أن ألتزم الصمت للأبد أم أحيك لهم حيرات لا نهائية بشأني.

قبل أن تغرب الشمس وتختفي وراء التل الغربي، أصب الماء على الطين المخمّر وأصنع ديكةً ودجاجاً وخرافاً ونعاجاً، فيدخل الليل وأنا منهك جداً. أطل على عروسة النهر. صارت متماسكة. أتحسس جسدها وأمسح وجهها بإبهامي. في الصباح يا عروستي ستملئين الحياة ضجيجاً، أهمس في أذنها. أخلع ثيابي وأنزل للنهر. أزيل أولاً آثار الطين من يديّ، وأواصل العوم كفراشة سعيدة. وبينما أضرب الماء بيد وراء الأخرى، أتذكر هذا الذي سرق ثيابي، وأضحك.

ألملم شعري بأصابعي وأستقبل الهواء على جسدي مبتهجاً. الجزيرة مضاءة بقمر مكتمل، يعلو شجرات خضراء تتراقص بإيقاع بطيء، ويتوسط سماءً مفتتة، محض كتل رمادية تتكامل مع النهر. يلاقح النسيم وجنتيّ عروسة النهر، يتسرسب إلى روحها عبر أنفها الدقيقة، فترتسم على شفتيها ابتسامة سريعاً ما تزول.

أرتدي ثيابي وأسير منتشياً على ضفة النهر، مقترباً من مركز الجزيرة حيث تتجمّع صنيعاتي بشكل منفرد. أرى رأسين يطلان من الماء، يتعانقان بحب ويغطسان. تتشابك يداهما ويخرجان ملتحمين. يرتديان ثياباً يستر عورتيها، ويسيران، دون أن يلتفتا، إلى قِبلةٍ أظنهما يعرفانها. أتتبعهما، فلا مناص لفهم منحوتاتي سوى تتبعها. يصلان إلى أحد أطراف الجزيرة النائية، ويهبطان بدرج إلى كهف أجده ضيقاً، فأراقبهما من مدخله بعينين وجلتين. أراهما يتعريان تماماً ويلعق كل منهما الآخر، تطلق بائعة اليانصيب تأوهاتها المدوية، ويمارس رجل البرميل الجنس بمهارة واسعة وبشغف يمكن السيطرة عليه لإطالة المتعة.

أعيد الخطوات التي سرتها مجدداً، وألمح أثناء ذلك تبةً عاليةً وقصيةً. بفضول أتوجه إليها بحدس أن الرجل ذو القضيب المنتصب دائماً يمكث هناك. أصعد إليها بخطوات منهكة، فأجده في أعلاها جالساً متربعاً ومنكمشاً، يقرأ في أوراقي بتأمل، بينما يدوّن في أوراق أخرى، لا زالت بيضاء لم تتلوث بعد، عبارات لا يمكنني قراءتها. يتوقف الرجل من حين لآخر، ربما بين كل جملة وأخرى، وينظر إلى الأفق لعله يتمكن بذلك

من فهم ما كتبته يدي. عقبته الكبرى، التي كانت مفاجأةً لي بقدر ما هي صدمة، أنني كتبت مستقبلهم الذي شاهدته كحاضر لهم، بينما يشاهد هو ماضيهم الذي لم أعرف عنه شيئاً. الفرق بيني وبينه بوضوح أنني من صنعت هذه التماثيل، وبالتالي بوسعي أن ألصق لكل منها حكايتها، وأن أنبيء كلاً منها بأيامها القادمة، رغم أني لست على يقين من أن اختياراتهم في الحياة الثانية ستطابق ما اختاروه مسبقاً، بينما يبدو مستحيلاً بالنسبة له أن ينسب الحكايات التي يمتلكها الآن لأصحابها، حتى سيرته الخاصة لم يكتشفها بعد، ولابد أن الذهول يصيبه كلما قرأ حكاية الرجل ذو القضيب دون أن يعرف أنه يقرأ مستقبله.

بقدرتي الآن أن أسترد أوراقي من تمثالي، سواء بالقوة أو باللين، غير أن اللعبة تغويني، وفضولي لمعرفة ما يفكّر فيه ورؤيته وهو يخطط وينفّذ، يجعلني أتخلى عن تعصبي. لهذا أهبط من التبة دون حنق. أواصل سيري، فأرى أمي وزوج أمي جالسين في جانب آخر، متطرف، بعيداً عن المركز، يتلي عليها شعراً، ويردد على مسامعها كلمات عشق لم أسمعها من قبل، فتنشد له بصوت كرواني، فيتراقصان. في منتصف الجزيرة أجد أبي بجوار جدران قصيرة جداً شيّدها من الحجارة، يجمع الطين والتراب في جانب لغرض لازلت أجهله.

أفكّر في عروسة النهر وأنا في طريقي إليها. أشتاق لعينيها التفاحيتين، وشعرها الغجري. لدي رغبة في معانقة جسدها اللدن، ودغدغته؛ في تقبيل شفتيها المُسكِرة ومضغ لسانها. ما من امرأة أحب إليّ كنحات من امرأة

صنعتها بيديّ، جمعتُ التراب لأجلها وسكبتُ عليه ماءً عذباً، عجنتُ مادتها الأولى وصببتها في قالب، جلستُ بجانبها حتى تحمّصت تحت الشمس وأزلتُ عنها شوائب الطين، شعرتُ بسريان الروح في جسدها قبل أن تدرك حواسها الحياة. أصل إلى عروستي وأرقد بجوارها، أود لو أتوحد معها، لو يصير جسدها امتداداً لجسدي. امرأة شهية لرجل يعشق، أهمس في أذنها، يتلمس حركتها لتصير قُبلتها طقوس عبادة، ومعانقتها خشوعاً في صلاة طويلة.

أجلس على ركبتيّ كحيوان أليف ينظر بوجل إلى صاحبه، منتظراً أن يمد إليه يداً ويداعب وجهه. أمرر يديّ على جسدها الدافيء وأقبض على نهديها. لدناً ومنتصباً كما يليق بعذرائي. أتحسس بطنها المستوية وأداعب سرتها المنقوشة بدقة (لستُ نحاتاً ماهراً، غير أني محب) بينما أشعر بسيولة الدم عبر أوردتها. أتشمم رائحتها الذكية، الشبيهة بالعنبر، وأرسم خطوطاً وهمية، بسبابتي، على وجهها المتبسم. الروح الآن بداخلها كما الطفل الوليد يترقب العالم، وبعد قليل سيحبو، ومع ساعات الصبح سينطلق ليعانق الحياة.

أضطجع بجانبها وأتأمل السماء المضيئة. تمر فجأة سحابة سوداء تظلل العالم وتحجب النور، إلا من بصيص ضوء يعبر من خلال ثقوبها. تخرج عروسة النهر مبللة من مكان عميق، تسير عاريةً على أطراف أصابعها. تتلفت خلفها بنظرات متواترة، ألمح في عينيها رعباً لم أره من قبل. أناديها من مسافة بعيدة فتبحث عن مصدر الصوت. أشير لها بيدي اليسرى، أرفع

لها اليدين، أثب في مكاني، دون أن تراني. في لحظة ما، يخرج الرجل ذو القضيب المنتصب دائماً من مكان مجهول، ويملأ الساحة بعدها عدد لا نهائي من البشر، فأراها، فقط للفارق بين حجمي وأحجامهم، في مركز دائرة ليس بوسعها الخروج منها، تحمل على كتفيها طفلين وبين فخذيها يعبث أطفال آخرون. تبدو تائهة وهي تشق الصفوف من أجل الوصول لمكان لا أعلمه، غير أنها تتساقط على أرض تطل منها أنصال سكاكين برّاقة. يسود هرج ومرج وتضطرب حركات المحيطين بها، تمطر السماء وتغسل دمها السائل، تخترق الصفوف المتكدسة خطوات راكضة تطأ رؤوس الأطفال لتعبر لضفة أخرى. تظهر أمي وخلفها أبي وبائعة اليانصيب ورجل البرميل وزوج أمي في لقطات خاطفة، بينما تنزوي صورة الرجل ذو القضيب المنتصب دائماً. تنزاح الغمامة السوداء وتعود السماء لصفائها، وأنظر بجواري فأرى عروسة النهر قد غيّرت من وضعها. أستوي في مجلسي وأنظر إلى عينيها، لا زالتا مغمضتين وتسبحان في حلم لا أعرف عنه شيئاً.

اليوم الخامس

يهاجمني الأرق مع شقسقة الصبح الأولى، ويداعب الندى خديّ وجبهتي. قبل أن أفتح عينيّ، أتصور الجزيرة مع خطوات عروسة النهر. لا أدري هل بوسع منحوتاتي رؤيتها أم لا. ولا أدري هل بوسعها هي أن تراني متجسداً أم سأصير محض صوت. أتوقع لاختلاف مادة الصنع ألا تحيط بها أبصارهم، غير أنه لا يمكنني توقُّع إدراكها الكامل لي. ما أعرفه يقيناً أنني فطرتها على عشقي، عجنتُ مع الماء والصلصال محبتي، شكّلتُ في قاع قلبها صورة مصغرة لي ستعيش أبد الدهر، قد تنتزعها ذات يوم بإرادتها، لكنها لن تستطيع سد الثقب الذي تندفع منه دماء غزيرة، ولو استطاعت سيبقى الثقب غائراً فوق ما تحتمل. لم أصنع صورتي بداخلها إلا لتحتفظ بي للأبد، وما أن انتهيتُ حتى أدركتُ فداحة ما فعلتُ. أي خطيئة تعادل خطيئة حفر الحب حد الموت في قلوب الآخرين، أن نصير محرابهم وقِبلتهم، إلههم الذي يتوجهون إليه بالطقوس، أن نكتب عليهم، حتى دون أن نتعمد ذلك، الفناء يوم يهجروننا. أي قسوة تكمن في جنبات الحب رغم ما يتبدى فيه من رقة. الحب لعنة تطارد المحبين إن عاجلاً أم آجلاً، ألم الفراق الأصغر سيأتيهم، وموعد الفراق الأكبر لا يتبدل، فالموت يأتي لا محالة.

أفتح عينيّ وأستقبل العالم بتوتر، لماذا أفكّر في النهاية قبل أن أبدأ؟ ولماذا أتعجل الأحزان في غمرة البهجة؟ أستوي في مجلسي وأنظر حولي. الديكة والدجاج والخراف والنعاج ترعى وتأكل من حشائش الأرض، ومكان عروسة النهر شاغر إلا من بصمات جسدها. أنتفض سريعاً كمن لدغته حية. أدرك أنها تحرّكتْ وسالت روحُها بجسدها، فأضطرب لتخيلي أن منحوتاتي قد تراها قبل أن أراها أنا، ولا أستبعد أنهم قد يأذونها. أركض بلا هدى تحت سماء تمطر في غير موسم المطر، وتغوص قدماي في وحل فتخلّفا بصمات ستبقى أبد الدهر. أصل منهكاً إلى مركز الجزيرة، أحمل أسئلةً ستغتال صفو بالي لو لم أعثر لها على أجوبة. أراها مقبلةً وهي تتجلى تجلي العروسة بين أترابها. فوق رأسها أكاليل من الزهر، ولها خال مسكي في وسط خدها الأبيض الممزوج بالحمرة. ترمقني بفاتر لحظها وتنظر إليّ نظرة المحب المفارق. يحيطها أهل الجزيرة أجمعون، يتحسسون جسدها اللدن بأطراف أصابعهم ويتشممونها، يتعجبون فيما بينهم من الجمال الذي لم ينظروا مثله قط. يقوم الرجل ذو القضيب المنتصب دائماً بدور الملاك الحارس، حد أنه لمّا يقصيهم بإشارة من يده يطيعونه في خنوع. أدنو منها فتواجه عيناي عينيها، فتعرفني روحها قبل أن تتعرّف إليّ. أمسك يدها وأركض بها بخطوات واسعة، فلا يسع أحد أن يلحق بنا. ما أن نستقر في مكان ناءٍ على ضفة النهر حتى تسألني من أنت، تصمت لحظات ثم تجيب بأنها تعرفني. كأنني التقيتك في مكان قبل ذلك، كأن لنا حياة ماضية في عالم آخر، تقول. أبتسم. هو كذلك يا عروستي، أجيب. كيف عروستك؟ تسأل. اسمك عروسة النهر،

وأسمّيكِ عروستي. أنت تعرف شيئاً لا أعرفه. أنا أعرف أشياءً كثيرة لا تزالين تجهلينها. ما هي؟ تسأل بشغف. سأحكيها لك. متى؟ لا تتعجلي، فأجمل ما في الحياة أن يأتي كل شيء في موعده. والآن موعد ماذا؟ موعد أن أقول لك إنني انتظرتُكِ كثيراً وما ظننتُ أبداً أنك ستخرجين على هذه الصورة، إنكِ أجمل مما توقعتُ وأكثر حياةً مما كنت أتمنى، أتعرفين يا عروسة النهر، مع طلتك تجلبين البهجة، ومع حمرة محياكِ أرى أصل الحياة وجذرها. لا أفهم بعض ما تقوله، غير أنني أراك جميلاً جداً، تقول وتقترب، في نظرتك سحر، وفي كلماتك فتنة. نتعانق، تصل بالكاد حتى صدري، فتسمع نبضات قلبي المتخالجة، وأشعر بأن الكون بين راحتيّ. ترفع إليّ وجهها بشفتين منفرجتين، منتفختين، أضع بينهما شفتي السفلية وأشعر أنني أعلو عن الأرض عدة أمتار. أسبح في حلم وردي، أفيق منه قليلاً لمّا أنتبه أننا جالسان على الأرض، فتجتاحني رغبة في التوحد معها، في التكامل، إعادة الجسدين إلى طبيعتهما الأولى، وللأبد. وفي لحظة ما، أجدني بداخلها، في فردوس أرضي، وبرغبة لا متناهية في البقاء هناك، بلا خروج.

أستريح على ظهري وأبدأ حديثاً، أتعرفين يا عروستي لماذا للرجل عضو بارز وللمرأة فراغ في جسدها؟ ترفع رأسها لي وتوميء بلا. لأن هذا الفراغ مسكن العضو، أقول، ولأن الاكتمال لا يحدث إلا بالتوحد. لو كان الأمر كذلك، تسأل، فما معنى بروز النهدين؟ أقبّلها، وأداعب شعرها الكثيف، مسكن النهدِ الفمُ يا حبيبتي، من أجل هذا يتمتع بحلمة. أتعرف، لديّ رغبة في أن ترضع هاتين الحلمتين، تقول. وأنا لديّ رغبة في

أن أتوحّد بك يا حبيبتي، فهذ موعد أن نتكامل باتصال جسدي أنتظره منذ زمن طويل. أنا مثلك، أشعر بجسدي مشدود ناحيتك، كأنني جزء منفصل منك ويريد استعادة الكمال، تقول. أريد أن أعجنك من جديد، أهمس في أذنها، أن تغوص أصابعي بين أنسجتك، ويلامس إبهامي أوردتك، ويمر على عمودك الفقري بدلال، وأقبض على مؤخرتك براحتيّ يديّ، أريد أن تنامي على وجهك فاردةً ذراعيكِ، فأضطجع فوقك، وأحجب جسدك بجسدي عن عين الشمس والمطر والمنحوتات. لمَ لا تفعل؟ لكن قبلها خبّرني، كيف تريد أن تعجني مرة أخرى؟ هل ثمة مرة أولى؟ تسأل بمكر من يرتاب ويبحث عن يقين. سأخبرُكِ عملياً يا عروستي: كنتِ صلصالاً منثوراً فجمعتُكِ، خلطتُكِ بالماء وعجنتُكِ، كوّرتُ نهديكِ هكذا، وبسبابتي وإبهامي سحبتُ حلمتيكِ، وبراحة يدي سويتُ بطنكِ. صنعتُ فمك وأنفك وعينيكِ وأذنيكِ، وشققتُ سمعك وبصرك وشمك وتذوقكِ. والآن أريد أن أدخلَ فيكِ لأشعر بوجودي، ليسير مائي بداخلك، ليستقر في رحمكِ فيتجسد عشقنا طفلاً، يحمل ملامحنا معاً. تضحك عروسة النهر. أباعد بين ساقيها فتسحبني لداخلها. يتشبث بي مدخلها الجنوبي، وأشعر بنشوة اللقاء الأول وأتذوقه.

تأخذني سنة الكرى وأعاود الحلم. أرى عروستي تركض على أطراف الجزيرة وخلفها رجل القضيب المنتصب، وبقية المنحوتات تتبعه. أفتح عينيّ منزعج الخاطر، فيلوح وجه الصباح في وجه عروستي التي تنام على صدري. أتركها في غفوتها وأسترها بثيابي. مشغولاً، أتجه صوب مركز الجزيرة بشعور أنه في غيابي قد حدث ما ساء لي، وأنني كلما تأخرتُ

فقدتُ جزءاً من إدراكي لصنيعاتي، وربما مع الوقت أفقد تماماً خيوط الفهم التي بدأت في نسيجها.

في شكل حلقة ذكر تتجمّع منحوتاتي حول رجل القضيب المنتصب. لا يزالون يتساءلون فيما بينهم عن المرأة التي ظهرت فجأة ثم ركضتْ واختفت كأنها لم تكن. يرتدي الرجل عباءة العارف ويخبرهم أنها عروسته المتمردة. فعلتُ من أجلها كل شيء كما رأيتم، ألبستها ثياباً يليق بها، صنعتُ لها أقراطاً بيدي وزيّنتها، وضعت فوق رأسها إكليلاً من الزهور، ورسمتُ لها خالاً مسكياً على خدها، قال لهم بصوت دافيء يخالف صوته المعدني المعتاد. أي قوة خفية تصر على أن تسرق مني محبوبتي؟ سألهم فأجابوه بنظرة أسى. قدّمت له بائعة اليانصيب ثمرة، تلقاها بيده وربت على يدها.

ينتشرون في الجزيرة دون أن أعرف لماذا، ربما يبحثون عن عروستي ليردوها لرجل القضيب. يقترب زوج أمي منه ويسأله، هل تتوقع أن تعود إليك؟ ستعود بالطبع رغم أن ذلك قد يكلفني الكثير، يقول، فالمرأة المتمردة لا ينقصها العقل، وستدرك إن عاجلاً أم آجلاً أنني حبيبها. هل أخبرتك من قبل، يسأل رجل القضيب، أنك ستكون نحاتاً؟ لا لا، لم تخبرني، أجابه زوج أمي. ستكون نحاتاً وستتزوج المرأة التي تجالسها وتعشق حديثها، وستنجب منها طفلين توأم. ابتهج زوج أمي وعانقه، فقبّل رجل القضيب جبهته، وودّعه في محبة.

رجل البرميل وبائعة اليانصيب يسيران نحو كهفهما. أمي تشدو فيصدح صوتها الكرواني في جنبات الجزيرة، ينصت إليها أبي بينما يصنع من الفخار قوارير وأوانٍ. رجل القضيب يصعد إلى تبته في أطراف الجزيرة، وزوج أمي يقترب من أمي ويراقصها. الخراف والنعاج والدجاج والديكة تتحرّك وتأكل الحشائش، تسير منفردة كأن كلاً منها يبحث عن حياته الخاصة بمنأى عن الجميع. يلتفت إليها أبي ويبتسم، يرسم صورة ديك على الأرض بسبابته. يختفي رجل البرميل ورفيقته عن المشهد، واحتار فيما ينبغي أن أفعله الآن.

أتجه صوب التبة وأراقب رجل القضيب. لقد أنشأ لنفسه بيتاً مسقوفاً من جريد النخل، زرع على بابه شجرتين ومهّد الطريق إليه بأرض مستوية. يدخل ويسحب أوراقه المرتبة والمرقّمة، يفرشها على الأرض ويثبّتها بأحجار صغيرة. يمسك بقلمه ويخط في ورقة بيضاء سطوراً تبدو جميلة ومنسّقة. غير أنني لا أستطيع قراءتها. أحني قامتي وأقترب أكثر وأنا أتساءل، أي عبارات يريد أن يرسلها للآخرين؟ أي رؤية؟ أجلس بجانبه دون أن يشعر بوجودي، لا يتمتع هذا الرجل بحس شفّاف، ولا ينتبه لدقائق الأمور، أفكّر. أنظر في الورقة التي انتهى من كتابتها وأقرأ عنوانها: «***رسالة إلى حبيبتي المتمردة***». يضعها بجانبه ويشرع في كتابة ورقة جديدة بعنوان «***رسالة أخرى***». الأوراق المرقّمة المكتوبة سلفاً تلفت انتباهي مجدداً، أقرأ فيها بعض السطور وأفهم محتواها، عن الجزيرة وساكنيها، حاضرهم ومستقبلهم. في ركن ما، أرى الحكايات التي خططتُ بيدي، دون رغبة

في أن أنتزعها منه. في المقابل، أريد رسالتيه. أنهض من مكاني، بقامة محنية مجدداً حتى لا أصطدم بالسقف، بمجرد أن ينهي كتابته، وأخرج قبل أن يهم بالنهوض. الشمس تملأ الجزيرة، والنار تحرق قلبي. لماذا لا أسرق كل أوراقه وأستريح؟ أتساءل، رغم علمي أنني لن أفعل. ولماذا لا تريد أن تفعل؟ أتساءل بصوت عالٍ. لأنني لا أريد أن أشكّل المصائر بقدر ما أريد أن أرى كيف يتكوّن العالم على مهل، أجيبني. لكنك قد تفقد عروسة النهر؟ أحذرني. وما جدوى الحب المتململ! وما الهنأة في حب يضطر أحد طرفيه إلى السير في طريق الآخر لمجرد إرضائه! أجيبني. هل تشعر بتهديد ما؟ أتساءل. الركون إلى الأمان في الحب أحد أسباب ضياعه. وماذا ستفعل للحفاظ عليه؟ لا شيء ينبغي أن يفعله المحبون للحفاظ على الحب إلا المزيد من الحب، وفي المقابل، لعروسة النهر حرية الاختيار، أجيبني بينما أخطو نحو مركز الجزيرة وأبحث بناظري عن منحوتاتي. أفكّر في صنع تماثيل أخرى لنساء جميلات، سألقيهن في طريق رجل القضيب ليختار مصيره بمحض إرادته.

أتعرّق تحت شمس حمئة، وأتصور الحياة الفارغة التي تشعر بها صنيعاتي. يجب أن أفكر في حياة كل منها، وأن أدرك أني بتكاسلي عن صنع تماثيل أخرى أمنح لها العزلة والغربة. سأجلس في الساعات القادمة لأرسم على ورقٍ وجوهَ أقاربي وجيراني، وبعدها سأجمع الطين لأعجنهم. لكني الآن أشتاقُ لعروستي، وأشعر أن بداخلي بئراً عميقاً خاوياً، لن يشغله سوى معانقتها بقوة.

أقترب من مكان صنعها، فلا أجدها. أبحث عنها فلا أعثر عليها. أضطرب. أتوجه صوب الضفة فأراها تسبح. أجلس وأتفرج. عروسة نهر جميلة، أقول. تغطس في جانب وتظهر في جانب آخر. هل سيكون الاختفاء والظهور سمتها؟ تعانق الماء بحب كأنها تعرف أنه المادة التي تكوّنت منه، تشرب لتسقي طينها الذي كلما جف جفت معه شفتاها. تعوم كما الفراشة فتفوقها جمالاً، ثم ما تلبث أن تسبح كما الكلب فتثير ضحكي. عندما تنتبه لوجودي، تدعوني بإشارة من يدها، فألبيها. هل كل ما سيربطني بها بعد ذلك إشارة من يدها؟ أخلع ثوبي وأقفز في الماء كطفل لا يزال يتمتع بالمرونة، فأرى تحت الماء ما أرى، جسداً مرمرياً بين فخذيه فرج له قبة تظلل عليه من أعلى بلحم يستره، ومن أسفل، حيث أكمن، تبان شفتان حمراوتان بينهما شق طولي مختبيء. ما أجمل أن أحيا داخل مغارتها. أسبح تحت الماء حتى أصل إليها، أرفعها فوق كتفيّ فيعانق مدخلها اللدن رقبتي، ورغم برودة الماء أشعر بدفئه ونبضه وتقلصاته. تمسك برأسي بيدين ناعمتين، ينزلق شعري المسترسل من بينهما، تضحك بقهقهة تليق بسيدة البهجة، ثم تتمرد وتقفز في الماء من جديد، وتحاول جري من قدمي دون أن تستطيع. أفتح ساقيّ في شكل مثلث، فتعبره كسمكة صغيرة، وتعاود العبور. أحبك يا عروسة النهر، أقول وأنا أعانقها حد دغدغة عظامها. أنا أيضاً أحبك يا... لم تخبرني باسمك! اسميني بما يروق لكِ. إن كنت أنا عروسة النهر وأنت تناديني بعروستي، فلابد أنك النهر. أضحك، لكنك عروسة النهر لأنني رأيتك للمرة الأولى في النهر، وأنتِ عروستي لأني اخترتكِ لنفسي، قلتُ. كيف رأيتني في

النهر للمرة الأولى وأنت رأيتني في وسط الجزيرة مع سكّانها؟ وكيف أكون عروستك لمجرد أنك اخترتني؟ أنظر إليها بيدين تعانقان وجهها، الرجل يا حبيبتي عندما يعشق تصير معشوقته جزءاً مكملاً لوجوده، لذلك يشعر بها عروسته وملكته. تنظر إليّ في تفحص فأسألها، كيف تشعرين بي يا عروسة النهر؟ تضطرب وتجاوبني، قريب جداً من روحي، حد أنني أشعر بأني بدونك قد أموت، وهذا ما يضايقني. لماذا؟ لأنني لا أشعر بإرادتي، أنت تنتزع مني اختياري، تلقي بي في طريق يجب أن أسير فيه لا أعرف لماذا. لأنني أحبك، أجيبها. الحب، طبقاً لما أفهم، اختيارُ واحدٍ من بين بدائل كثيرة. الحب، يا عروستي، أن نمتليء بفرد يمثل لنا العالم. لم أصل بعد لهذا المفهوم، ولم أعرف العالم حتى أزهد فيه. عروسة النهر المتمردة، أهمس. بأي اسم يمكن أن أناديك؟ النحات، اسمي النحات. أيها النحات الطيب، دع الحب يسري بين ضلوعنا على مهل، ودعه يدلنا على الطريق. لكِ ما شئتِ، فطبيعة البشر تهفو للبعيد وتزهد في القريب. ليس هفواً ولا زهداً، بل سؤالاً يؤرقني. اخبريني به. لماذا لا يراك الآخرون يا نحات؟ فحين خطفتني من بين أهل الجزيرة وهرولت بي، لم ينادك أحد، لم يسبك أحد، لم يذكرك أحد، أنت محض هواء. مدي لي يدك، أقول وأنا أمد يدي ثم أضغط على يدها، ألستُ موجوداً؟ بلى، وأراك وأسمعك وأحسك وألمسك. ماذا يؤرقكِ إذن؟ أن الآخرين لا يرونك، ولا أعرف لذلك سبباً، أن علامات الاستفهام التي تحيط بك أكبر من أن تتحملها نفس مطمئنة. وما جدوى أن يراني الآخرون؟ أسأل. كيف يمكنني أن أواجه العالم بحب سري؟ تجيب بسؤال، وأي قوة تساعدني أن أدعي حبي لغير

مرئي؟ تسأل بإلحاح. الحب يا عروستي ليس في حاجة لموافقة الآخرين، أقول.. لكن استمرار الحب في حاجة لدعائم، وإحدى دعائمه مباركة الآخرين، تقترح. لا أرى ذلك، الحب علاقة ثنائية مثل الدين، بين العبد وإلهه، وليس في حاجة لمن يمنحه شرعية، أرد. وماذا بعد الحب؟ تسأل. الحب، يا حبيبتي، من يحدّد لنا ماذا يحدث بعده، وليس من الفطنة رسم طريق للعواطف لتسير فيه. ليس رسماً ولا تخطيطاً، بل الشعور بالأمان، تقول. ما من شيء يهب الأمان مثل الحب الحقيقي، العقود المكتوبة والرؤية من قبل الآخرين، التي تطمحين إليها، محض مظاهر لا ضمانات فيها، فالآخرون لا يصنعون سعادتنا بقدر ما يعكرونها، وأحكامهم محض تعسفات، وأغلب الظن أنهم يتسامحون مع أنفسهم دون غيرهم. لكن، لماذا لا يرونك؟ تسأل حائرة. لا أعرف السبب تحديداً وإن كان عندي تخمينات، وربما يرونني يوم أتوصل لمعرفة السبب عن يقين.

أصطحب عروسة النهر من يدها ونخرج من الماء، نسترخي تحت الشمس التي تجفف جسدينا دون أن تجفف رغبتنا. أتعلم يا نحات، ليس ما يعجبني فيك بسطة جسدك وسعة صدرك فحسب، بل حديثك ونظراتك، أنت حاوية أسرار أود لو أفضها، غير أنني، في المقابل، لا أريد أن تسوقني مشاعري، بل أود أن أسوقها أنا. لكنكِ بذلك تخالفين طبيعة المرأة. ما أدراك بالمرأة يا أيها النحات الطيب، المرأة، لو أردت أن تعرف، يسوقها عقلها، وعلى عكس ما يظن الرجال، فهي التي تختار. أظن أن الرجال من يختارون لأنهم يأخذون المبادرة. ليس صحيحاً يا سيدي، فالمرأة الذكية من تختار ثم تجعل مختارها يأخذ المبادرة متشككاً في القبول. قد

تكونين محقة يا عروسة، فتجاربي في الحياة، عندما أتأملها، تثبت جزئياً ما تقولينه، لكن ما استغربه أنك تعرفين ذلك رغم حداثة عهدك بالوجود. هذا ما يهديني إليه تفكيري دون أن أدري هل هو معرفة خاصة بالمرأة فأنا بذلك أتحدث عن طبيعتي، أم هو معارف متراكمة لا أعرف كيف جاءتني. نتبادل النظر خفية، يتأمل كل منا جسد الآخر في صمت، وفي لحظة تلتقي عيوننا في صفاء. أتعلمين يا عروستي، ما من شيء في الكون يشعرني بالاكتمال سوى الدخول فيكِ، حينها أشعر أن عضوى الزائد عن جسدي يجد مكانه في فراغك، فيكتمل كلانا. وأنا أشعر حينها يا نحات أننا عُدنا إلى أصلنا، فانا أتخيل دوماً أننا في البدء كنا ملتصقين ثم جاءت يد إله شرير وفرّقت بيننا. هناك أساطير عن نصف التفاحة، وأساطير أخرى عن نصف البرتقالة، أقول. أؤمن أكثر بأسطورة خاصة، تقول. ما هي؟ أسأل. أن الخالق صنع للرجل مكملاً في ذراعه الأيمن وللمرأة مكمّلاً يركب على مكمّل الرجل في ذراعها الأيسر. وما شكل هذا المكمّل؟ أسأل بفضول. يشبه مفصلات الأبواب. وماذا حدث بعد ذلك؟ أسأل. بهذه الطريقة كان كل رجل يلتقي المرأة التي يعشقها دون جهد أو ضلال، وكانت المرأة تجرّب مفصل ذراع الرجل على مفصل ذراعها فتعلم يقيناً أنه رجلها، نعم كانت هناك تجارب تُجرى والتباسات تحدث، لكن دون الدخول في علاقات تخلّف وراءها جراحاً. اكملي يا عروستي. حدث بعد ذلك أن خلافات حدثت بين رجال ونساء، خلافات يمكن أن تحدث بين أي اثنين يعيشان معاً، فبدأت نقمتهم على مصائرهم، فلمّا تزايد ذلك وشعر الرب أن اللعنات تطوله في كرسيه، قرر أن يزيل نعمته ليبقى البشر بلا دليل في متاهتهم، ومنذ ذلك الحين يبحث كل منا عن علامات المفصلات في ذراع الآخر.

إذن، أنتِ تؤكدين أن التمرد والاختيار صفتان كريهتان في مقابل الرضا والإيمان بالمكتوب سلفاً؟ أسأل مستنكراً. التمرد والاختيار صفتان بشريتان، أما الرضا والإيمان فصفتان ملائكيتان، وأنا أحب أن أكون بشرية وأدفع الثمن، والغريب أنني في لحظات كهذه أركن إلى الرومانسية فأحكي مثل هذه الأشياء، وأود لو أقتنع بأن خطوط ذراعي يمكن تركيبها مع خطوط ذراعك فنشكّل كلاً مكتملاً. قاع المرأة، أقول، بحر ثائر، يلفظ إلى سطحه عكس ما يبطن. تعال يا نحات، تحسس جسدي بيدك لترى بنفسك النتوءات الصلبة في الجسد اللدن. أعيد تشكيل جسدها من جديد، أعجنه، أصنع به طرقاً لأصابعي، أمص بروزه وألعق شقه الطولي، وأستريح هناك فنعود من جديد كلاً مكتملاً، وأقذف بزبدي، مرتجفاً، في بئر لا حدود له، وأغوص في منام.

أراني عند حافة بئر عميق، بقضيب يصل إلى القاع وتسبح رأسه في سائل أبيض لزج وثقيل، وحول القضيب كائنات لا نهائية، صغيرة جداً بشكل مفزع، تتسلق عليه لتصل إلى آخره، أو ربما لتخرج من البئر. وبينما أحاول مساعدتها بمد يدي، تظهر يد كبيرة تحمل سكيناً يبرق نصله في الظلام، وقبل أن أصرخ، تقطع قضيبي من منتصفه ويسيل دم يبدّل بياض البئر إلى أحمر قاتم. فأستيقظ مفزوعاً لأجد عروسة النهر نائمة بين فخذي.

أفكّر في أن أصنع لها بيتاً يقيها الحر والبرد، ويحميها من أهل الجزيرة إن بحثوا عنها. أتركها في سلام النوم وأتسلق تبةً في الشرق قريبة من مكان

الصنع. أرسم بعصا حدود المسكن، وأضع أربعة أحجار في الجهات الأصلية لأقدّر ما أحتاجه من خامات. أهبط مسرعاً لأتمم البناء قبل صحوها، وأجمع فروع الأشجار وجريد النخل بينما يخطر ببالي أن بيتاً فوق تبةٍ سيكون مكشوفاً، فأتراجع ليكون البيت خلفها. أخطط من جديد وأشرع في العمل. أخلط الماء بالتراب والقش فيصير طوباً لبناً أصنع من أحجاره المتراصة جداراً، وأجعل له نافذة مثل نافذة كوخي. أعمل وأستريح، حتى أنتهي بسقف من الجريد وفروع الأشجار.

أتجه إلى مخدع عروستي تحت الشمس، فلا أجدها. أدنو بخطى منهكةٍ تجاه النهر فلا ألمح لها أثراً. أغسل يديّ بمائه وأهرول صوب مركز الجزيرة، وفي خاطري تتراص المشاهد التي تثير قلقي. ما إن أصل حتى أراها من ظهرها، جالسةً مع أمي وزوج أمي ورجل القضيب. أقف في مكان لا يمكنها أن تراني منه إلا إذا التفتت خلفها، بينما يواجهني الباقون الذين لا يرونني بالفعل. ألمح ناراً مشتعلة ودجاجة تُشوى فوق الحطب، يقلّبها رجل القضيب كل دقيقتين بعصا صغيرة ونحيفة. عندما تنضج، يوزّع عليهم الطعام فيتناولونه بامتنان. يأكلون ولا يأكل، بل ينشغل بوضع دجاجة أخرى فوق الحطب، ومن بعيد تقترب بائعة اليانصيب بسلة من الثمرات فتعطي لكل منهم ثمرة، وتجلس حتى تنضج الدجاجة الأخرى فتأخذ وركين وتغيب عن المشهد. يدور بين الجالسين حول النار حديثٌ لا يتوقف، أمواج تتعاقب في هدوء ودون تلاطم، تستقر على شاطيء كل منهم في ألفة وسكينة. يتحدث رجل القضيب بابتسامة تزيده وسامة، يحرّك يده اليمنى واليسرى بالتبادل، ويهز رأسه قليلاً كحكيم يُلقّن خبرته.

يتداخل معه زوج أمي برقته المعهودة، ويبدو، كعادته، يطرح فكرةً مريبة، فمن أين له أن يعرف يقيناً وهو المتشكك حتى في وجوده ذاته. تقول أمي عبارة ختامية وتنهض، تأخذ صدر الدجاجة وتضعه فوق ورقة شجرة وتسير لتقترب من أبي المنعزل يصنع إناءً من الطين على بعد أمتار ليست قليلة، فيستقبلها بابتسامة ويقبّل يدها في حنو. تعود إلى الجلسة فتجدهم مستمرين في حوارهم، تقاطعهم عندما تشدو ككروان مسرور. يلتفت لها الجالسون بغبطة، وتتراقص أرواحهم. يصدح صوتها في الجزيرة حتى يُخيّل لي أن الأشجار والنخيل تردد كلماتها. يشاركونها في الغناء، بينما يهز رجل القضيب رأسه في طرب. وعندما تختم أغنيتها بضحكة، يضحكون معها، وينهض زوج أمي ويساعدها على النهوض، يتجولان في الجزيرة ويجلسان على ضفة النهر، وتبقى عروسة النهر مع رجل القضيب يتحدثان.

هل من الممكن أن تخبره عني؟ أن تقول إنها تحب رجلاً غير مرئي؟ ولو قالت ذلك، هل من الممكن أن يصدّقها الرجل؟ الفضول يدفعني لأقترب وأسمع، غير أنني لا أريد أن تراني. أفكّر في أن أسحبها من يدها وأركض بها مثل المرة السابقة، لكنني أرجح أن أتركها لاختيارها. رجل القضيب يتحدث ويتحدث بلا توقف، وينظر إليها، مثلي، بنظرات شغوفة. وأنا قلبي يحترق. مع مرور الوقت، تبدو العروسة قلقة، تتلفت حولها فتجدهم مشغولين في أشيائهم، حتى تقرر الانصراف في النهاية. يودّعها الرجل برفعة، وتودعه بقلب ليّن. يصعد إلى تبّته، بينما أرافقها في سيرها. تصعق عندما تراني، وتسألني، أين كنت، صحوتُ فلم أجدكَ وبحثتُ

عنكَ دون جدوى. كنتُ أصنع لكِ بيتاً يقيك الحر والبرد. أين هو؟ قريبٌ من مكان نومك، أجيبها. اخبريني يا عروسة، فيما كنتما تتحدثان؟ تنظر لي وتبتسم، في البداية قابلتُ الرجلَ الوسيمَ وسألني ممَ كنت أركض في المرة الفائتة، فأجبته بأنني شعرت فجأة بالخوف، فهدأني وقال إنه لا خوف في الجزيرة ما دام هو فيها، وكان يبدو مزهواً بنفسه. بعدها حدثني عن أنه أول من ظهر هنا، بعد ذلك ظهر أهل الجزيرة تباعاً، لذلك يشعر نحوهم بالأبوة رغم أنه الأصغر سناً على ما أظن. حكى لي أنهم كانوا عرايا فصنع لهم ثياباً، وكانوا جوعى فزرع لهم ثماراً، وأخيراً توصّل للنار وأطعمهم لحماً ناضجاً. ولأنني لم أذق اللحم من قبل، طلبتُ منه أن يطعمني، فجمع الحطب وأشعله، واصطاد دجاجة كانت شاردةً فذبحها بشيء حاد ونتف ريشها، وعندما همّ بوضعها على الحطب، اقتربت المرأة المغنية والرجل النحيف وجلسا معنا. تبادلوا جميعاً الحديث وصمتُ أنا. وفيما تحدثوا يا عروسة؟ في البداية سأله الرجل النحيف عن سر اختفائه بالليل، فأجابه الرجل الوسيم بأن صوتاً يأتيه في هذا الوقت ليخبره بأشياء مجهولة، وعليه أن ينتظره حتى لا يغضب منه، وأضاف أنه يسجّل هذه الأشياء في ورق وذات يوم سيطلعهم عليه. فقالت المغنية إنهم أيضاً سمعوا صوتاً في البداية كأنهم يعرفونه، ثم ما لبث أن غاب عنهم. فرد الرجل الوسيم: لا، ليس الصوت المزعج الذي سمعناه جميعاً في البداية، والذي أظن أنه محض خلل في السمع، وإنما صوت دافيء كأنه قادم من عالم آخر، علّمني صنع النار وأشار لي إلى الحطب، ودلني أن الحيوانات تؤكل، كما يخبرني بما لا يعلمه أحد. فطلب منه الرجل النحيف أن يخبره

ببعض ما يعرف. فقال له إنه أخبره من قبل أنه سيكون نحاتاً وسيتزوج هذه المرأة، وسينجب توأمًا، وأضيف إلى ذلك أنك ستضيع في الحياة وتختفي لأن لعنة ما ستصيبك. فسأله الرجل النحيف أي لعنة هذه، فأجابه بأنها لعنة الشبه. فسألته المرأة، وأنا ماذا سأفعل، فأجابها بأنها ستتزوج الرجل السمين الجالس هناك، والذي كان يصنع أوانٍ وقوارير، وأنه سيكون مسرحياً. فسألتْه: وهل سأعيش معه للنهاية؟ فأجابها: ستعيشين معه حتى موتك ويعيش بعدك مكلوماً. أهذه هي اللحظة التي قامت فيها واقتربت من صانع الفخار؟ سألتُها. نعم، هي بالتحديد، وحينها سأل الرجل النحيف إن كانت هذه حقيقة ثابتة أم محض تخمين، فأجابه الرجل الوسيم بأنه يعرف المكتوب وينقله، فسأله الرجل النحيف من جديد إن كانت المصائر ثابتةً لا يمكن تغييرها، فأجابه بأن بعض المصائر قد تتغير، غير أنه لا يعرف قاعدة لذلك. لكن الغريب يا نحات أن الرجل النحيف لم يبد مصدقاً تماماً، حد أنني شعرتُ بأن سؤاله يحمل من السخرية أكثر مما يحمل من الجد. لكن اخبرني، كيف يمكن للرجل الوسيم أن يعرف المكتوب ويطّلع على المصائر؟ تسألني، فأجيبها بأن تكمل وأعدها بأن أحكي لها فيما بعد. تقول عروسة النهر إن المرأة نهضت بابتسامة صفراء، وكانت تبدو حزينة رغم محاولتها لمداراة ذلك، وعادت تغني بكلمات معناها أن الحياة لا تمنح السعادة الكاملة، وأن المعاناة جزء أصيل فيها، وأن المكتوب لا مناص من تحقيقه، وأننا محض ريشة يحملها الهواء إلى أي قبلة شاء، ورغم أنها كلمات متحسرة، إلا أن صوتها الرائق صنع لنا البهجة. ثم سارت مع الرجل النحيف وهي تخبره أن يوماً من العشق يعادل عمراً بأكمله، بينما

يخبرها هو أن القدر هو ما نكتبه بأيدينا لا ما تكتبه يد خفية. هنا دار حوار بيني وبين الرجل الوسيم، سألته فيه عن الأقدار والمصائر، عن الموت والحياة، عن الأمس والغد، فأخبرني بحكمته أننا مجرد عرائس تحرّكنا يد عظيمة، توجهنا إلى الخير حتى وإن بدا الخير شراً، وأكّد على ما قالته المغنية من أننا نفعل المكتوب سلفاً، فسألته عن مكتوبي، فصمت وكأنه يود ألا يخبرني، فسألته من جديد، فقال أود لو تفعلينه دون أن أخبرك به، ففي ذلك متعة خالصة. قلتُ له إنني قلقة، وأن الغيبَ ألمٌ يجب أن يزيله إن كان ما في عينيه من حب صادق، فأمسك يدي بيد وربت عليها بالأخرى، وقال ستكونين زوجتي وسننجب أبناءً جميلين مثلك، فانقبض قلبي للحظة واعترضتُ على أن ينزع المكتوب منا اختيارنا، فقال بثقة العارفين إن المكتوب يعرف ما يحدث، غير أنه لا يفرضه، فتحججتُ بأنه قال إننا كالعرائس في يد القدر، يوجهنا حيث يشاء، فقال إن بعض الأقدار لا مفر منها لصلاح الكون، والبعض الآخر محض اختيار. وسكتَ في حزن، فطلبت منه الانصراف، وانصرفتُ مذبذبة مرتابة، والآن أريد معرفة الحقيقة. أنظر إليها بحنو، وأعانقها بحنو، يا عروسة النهر، بعض ما قاله حق، وأغلب ما قاله محض أكاذيب، وفي نهاية المطاف سيكون لك ما تريدين، فلا تخافي ولا تقلقي. تصمت في حيرة، وأشرد في ترقب، أي مفاجأة يحملها لنا الغد، أتساءل. أعاود الحديث من جديد عن البيت الذي صنعته لها، فتصعد ابتسامة على محياها، أتأبطها وأقبّل جبهتها، ونسير معاً إلى أرضه. عندما نقترب أشير لها إليه، رطباً لا يزال، له عبق الطين، وهيئة الجنة، ويمنح ما يمنحه الرحم من أمان. أتشممه بوجل، وأخطو من هيكل

بابه بصحبتها، وأنظرها وأنتظر فرحتها. تسعد به وتعانقني، تطل من نافذته وتلحظ ثقوب سقفه المرتفع، أي سعادة تهبني يا نحات، تقول. القيظ بالخارج والهواء الرطب هنا، كيف ذلك؟ تسألني. هذا حال الطوب اللبن يا عروستي، فما الغريب إذن. أريد أن أصنع أشياءً مثلك، تقول. أي شيء تريدين صناعته؟ أسأل. لا أدري، اخبرني أنت. ما من شيء أفضل من منح الحياة أو الحفاظ عليها أو حكيها، أقول. وكيف أمنح الحياة أو أحافظ عليها؟ تسأل بفضول. تُمنح الحياة بالزراعة، ويُحافظ عليها بالشفاء، أوضّح لها. سأبدأ بالزراعة، ثم بالحفاظ عليها، وأثناء ذلك سأحكيها. أبتسم لها، وأنا سأساعدك في كل ذلك.

تميل الشمس عن منتصف السماء، ويغيب مع ميلها القيظ الشديد. يعاودني سؤالي عن كيف صارت عروسة النهر مرئية بينما صرتُ محتجباً للأبد. وكيف تراني هي دون أن يفعل الآخرون ذلك. أظن أن استفهامي سيبقى بلا جواب مثلما سيبقى استفهام صنيعاتي معلّقاً في هواء الحيرة، وبالطريقة التي لا أجد بها من يقدم لي طرحاً شافياً، سيكون الالتباس والتخمين مسلكاً لكل من يريد أن يعرف ما ليس بوسعي أن أكشفه، ليس فقط لأنني عاهدتُ نفسي بعدم التدخل في المصائر، بل أيضاً لأن صوتي وحده لن يكون مصدراً للثقة والأمان، حد أنه سيوصف بالوهم والهلاوس. لأكن صادقاً مع نفسي إذن، لماذا ستصنع عدداً من تماثيل النساء ليشغلن رجل القضيب إن كنتَ لا تريد التدخل في المصائر؟ أنا لا أصنع حياة جديدة حتى تتهمني بالتحيز لذاتي، بل أكرر حيوات سابقة فحسب، بنفس أفرادها، دون مراعاة للزمن الفاصل بينهم، وأتيحُ لكل منهم فرصة اختيارات

أخرى لأرى كيف من الممكن أن تصير حياتهم إن غيّروا اختياراتهم، أم أنهم سيسلكون بمحض إرادتهم نفس الطرق التي سلكوها من قبل. بهذه الطريقة لا يمكنك أن تتهمني بتهيئة ظروف أفضل لنفسي لأحصل على سعادة مطلقة، في الوقت الذي أسعى فيه للمشاهدة المحايدة لا لتحريك عرائس. فأنا أعلم من أخبار متواترة أن رجل القضيب المنتصب دائماً صار كذلك من كثرة غرامياته وممارساته الجنسية المفرطة والمبالغ فيها، غير أنني لم أطلع على تفاصيل ذلك في الحياة الماضية، مثلما لم أطلّع على آلاف التفاصيل الأخرى التي أنا في طور اكتشافها. لا تنس أيضاً أن ما كتبته يدي من قبل كان لحظة زمنية حاضرة، وأنا الآن أشاهد ما سبقها، تلك الأحداث التي أوصلته في النهاية إليها.

أنفض عن رأسي أفكاري وأستوي في مجلسي. لا ينبغي أن يطغى الشرود على العمل، ولا يجب أن أتباطأ في صنع منحوتات أخرى تشغل ساعات منحوتاتي المحبوبة. أفكّر من جديد في مكان قصي أتمكن فيه من عجن صنيعات دون أن يلحظني أحد، وأن تجف بعدها وتسير إلى الحياة، بمعزل عن فضول الآخرين. أتجه إلى عمق الجزيرة من ناحية بيت عروسة النهر، لأفاجأ للمرة الأولى باكتشاف منخفض شبه مستدير ورحب، عمقه لا يبلغ المترين، تحيط به شجرات ظل سامقة، باهت خضارها، تلتحم فروعها الأعلى المتأخمة فتشكّل سماءً خضراء. أملأ الدلو من النهر وأعود لأهبط إليه بتمهل، وأجمع التراب صانعاً منه أهراماً صغيرة. أخلط الماء بالتراب وأعجنهما بيديّ، وأصعد لأملأ الدلو مجدداً. أكرر العملية عدة مرات حتى يصير طيناً ليناً. خالتي، سأبدأ بخالتي، أقول وأنا أشكّل

وجهها الذي لا أتذكره كثيراً. وبينما أنا منهمك في العجن والتشكيل، ألتفتُ لأرى فجأة رجل البرميل يقف بين الشجرات ويطل عليّ. أنظر إليه فلا ينظر إليّ. يتفحص الصورة بين يديّ بعين المندهش، ويهبط مسرعاً عندما أتوقف، ليستقر بجانبي دون أن يراني. أواصل عملي، فيرى بعينيه تشكيل صدر وذراعين وبطن وفخذين وساقين وقدمين، فيجلس على الأرض ويتساءل بصوت هامس، كيف تتشكّل الصورة بمفردها، وماذا سيحدث لها عند اكتمالها، وبعينين زائغتين يتأمل جسداً موجوداً، يقف بجواره ويصنع موجودات أخرى، دون أن يكون مرئياً. يتساءل، أنكون في الأساس محض صورة من طين دبت فيها الروح؟ أتركه في حيرته وأواصل صنع الأصابع. أعجن بعض أقرباء أمي، وجاراتها التي كانت تأتنس بهن. أسكب مزيداً من الماء على الطين، وأشكّل صورة لعمي. يجلس رجل البرميل، يرقد، ينهض، يبقى واقفاً، تغرب الشمس وينفد الماء، وأشعر بالتراخي. مع حلول الظلام يصيبه الجنون، يقترب من الصور وينظر إليها بتأمل كأنه يحفظ ملامحها، يحاول أن يلمسها بلا جدوى، فكلما مد يده ضربته عليها فتقهقر خطوتين للخلف، وأعاد الكرة ليتيقن أن ما زجره ليس محض وهم. عندئذ يرتجف قلبه، فيركض وهو يتلفت حوله وخلفه، بينما أسأل نفسي لماذا لم أتحدث إليه؟ لأنه لن يحتمل، أجيبني، فكيف له أن يستوعب تماثيلَ تُصنع بيد صانع محتجب وصوتاً يشرح له ذلك دون أن يفسّر اختفاءه. سأحدثه في وقت آخر، يكون فيه قد تفكّر وتجاوز الخطوة الأولى. أنتبه إلى أن الساعات مرت سريعاً، وبدلاً من أن أستريح أفضّل أن أستحم في النهر في دقائق، لأعود إلى عروسة النهر لأرى ماذا تفعل،

ولأتتبع حركة صنيعاتي في الجزيرة.

بعصا طويلة حددت عروسة النهر الأرض التي ستزرعها، مساحة قيراط بالتقريب، في شكل مستطيل على الضفة بالقرب من بيتها. حرثت الأرض وحفرت قنوات بداخلها، ورمت البذور التي ستصير يوماً ثمرات طيبة. أنا سعيدة يا نحات، لأنني سأطعم نفسي بيدي وأطعم الجائعين، تقول مهللةً وهي تراني أقترب. أتأبطها وأشعر بالرضا، وأدنو بصحبتها من مربعها المخطط، جميلٌ يا عروسة ما صنعته بيديكِ. لكنني لن أتوقف عند ذلك، أريد أن أستخرج من هذه الثمار دواءً، وأضيف لمنح الحياة والحفاظ عليها ما يعطيها مذاقاً. أفهم ما تصبو إليه غير أنني أستوضح، وبأي طريقة يمكن أن تعطيها مذاقاً؟ تنظر بابتسامة غامضة، أريد أن أكتب حكايات تصوّر العالم أو تتصوره، أو أكتب شعراً يلخص المعاني التي تدور في ذهني، تقول وتشرد. أكملي يا عروسة النهر. أتعرف يا نحات، كنت أفكّر وأنا أحرث الأرض في أن الإنسان مفطور على الحكي، وأن ما حدث لا يمكن اعتباره حدثاً إلا بحكيه، ففي الحكي محاولة لتأويله وإعادة تأويله، قراءة للماضي والحاضر، ونبوءة بالمستقبل. أبتسم لها وأقبّل جبهتها، فتندهش ويدور في عينيها سؤال. أعرف ما تقولينه يا عروسة، فربما ينتهي العالم لو انتهت الحكايات، لذلك سأمدكِ بأوراق وأقلام، وسأقرأ حكاياتك كلما تسمحين بذلك. وأنت، هل تكتب حكايات؟ تسأل بتوجس. كل نحات يكتب حكايةً جديدة مع كل تمثال جديد، غير أن الخلود للحكاية المكتوبة، حتى وإن سقط اسم حاكيها.

أترك العروسة تسبح في النهر وأتجه للكوخ. أنزع المزلاج الخشبي وأفتح الباب. ألمح الشباك مواربًا كأن يداً عبثت به. أوراقي البيضاء التي كانت متكدسة ينقصها ورق، بينما الأوراق الأخرى التي أدوّن فيها تاريخ الجزيرة لا تزال في مأمن من العبث. أغلق الشباك وأحمل بعض الأوراق وأخرج. ألحظ آثار أقدام حول بيتي دون أن أقتفيها ودون أن تثير استغرابي. صنيعاتي لا تكف عن البحث، ولا أدري إن كان بوسعها معرفة الحقيقة أم لا.

لا يغيب رجل البرميل عن ذهني. أسترجع هيئته وهو يركض رعباً وخوفاً دون أن يدرك حقيقة ما يحدث. تراودني فكرة متسلطة تدفعني للبحث عنه ومعرفة ماذا يقول لرفيقته. أَمُرُ بمركز الجزيرة وأرى بيت أبي مكتملاً ومسقوفاً، هذا الرجل لا يكف عن العمل كأنه مفطور على الصنع مثلي. الجزيرة خالية تماماً كأن سُكّانها هجروها في لحظة غياب الزمن. أواصل سيري ناحية الشرق في طريق الكهف، لابد أن رجل البرميل هناك، يحكي لبائعة اليانصيب ما شاهده مصعوقاً، رأيت بهاتين العينين صوراً تتشكّل، رأيت قدمين وساقين أولاً، ثم بطناً وصدراً ورأساً، ترد المرأة بأنه هُيِيء له، وأنه من كثرة انشغاله بسؤال من أين جئنا وأين نذهب صار يتخيل أشياءً لا وجود لها، أقول لك رأيت ذلك كما أراكِ الآن، وعندما مددتُ يدي لألمس تمثالاً زجرتني يد غير مرئية، تتعجب المرأة، ترفع إحدى حاجبيها، وتسأل، أين تقع هذه الحفرة؟ بعيداً جداً عن هنا، في عمق الشرق، بوسعي أن أصطحبك إلى هناك لو وددتِ. أصدقك يا حبيبي، لا تقلق، تقول وتربت على كتفه، تعانقه وهي تبحث عن كلمات لتهدئه بها،

غير أن المفردات تهرب منها فلا تجد مناسباً إلا الصمت. يقطع شرودي صوت تأوهات وصرخات، أتتبعه فأصل إلى هرم صغير لا يتجاوز المتر. أنظر وأرى، أمي بساقين منفرجتين مرفوعتين على كتفيّ زوج أمي الذي يدخل فيها ويخرج بتأنٍ، كأنه لا يريد للحظة الحميمة أن تنتهي. أداري وجهي بيديّ وأشعر بوخزة في قلبي، وبينما أستدير أسمع، دون إرادة مني، تأوهات النشوة المزدوجة، ثم الخمود والانطفاء. أواصل سيري دون أن أنتبه في أي تجاه أخطو، أراجع تاريخها فلا أجد فيه علاقة جنسية لأمي بزوج أمي خارج الزواج الذي تم بعد اختفاء أبي. لا ألومها الآن على شيء، يمكنني من هذا المكان وهذه اللحظة أن أكون أكثر تسامحاً مع العالم، وأن أفهم قوة الحب وسيطرته وسلطانه، لكنني في الوقت نفسه أنزع غطاء القدسية عن أمي، لأراها أكثر بشرية، قد يؤلمني ذلك كما يحدث لي الآن، لكن النضج في الحقيقة لا يكتمل إلا بالصدمات، بتحمُّل نزع القداسات عن الآخرين. المقدس وهم، كلمة مبتذلة، اخترعها راعي من أجل قطيع يتّبعونه، إنها ملائكية تتناقض مع بشريتنا، التي هي في آخر المطاف مذاق الحياة. أمي بشرية مثل عروسة النهر، وليس عدلاً أن أصدر حكمين مختلفين على نفس الواقعة. علاقتي بعروسة النهر علاقة عشق، مثل علاقة أمي بزوج أمي، ونتاج هذا الحب قد يكون ابناً شرعياً، لا أقبل أن يسمى بابن حرام، لأن الحرام أن نضاجع من لا نود، بإرادة مسلوبة، فنصير منتهكين.

أشعر بشيء من الدوار. أحاول أن أنفض عن عينيّ المشهد الذي رأيته للتو، دون جدوى. هل أنت مقتنع بما تقول من أفكار؟ نعم بالطبع. وإذا

كان الأمر كذلك، ما الذي يُشعِرُك بالدوار؟ ما بين الفكرة التي تعتنقها وتطبيقها على أرض الواقع مسافة شاسعة، قد تصل للمسافة بين السماء والأرض، وقد تقضي عمرك بأكمله دون تحقيقها. أنت لست مقتنعاً إذن تمام الاقتناع! بل مقتنع تماماً، غير أن الاقتناع بالشيء لا يعني تغيير ما فُطرنا عليه أو اعتنقناه لسنوات طوال في طرفة عين، فتغيير القناعات يمر بخطوات، أولاها الإيمان بفكرة مغايرة. أفاجأ أنني أمام الكهف، الذي يبدو مظلماً. أطل من مدخله فأراه بنور خافت. ضوء القمر والنجوم يخترق فتحات سقفه فيكشف بالكاد وجه المستكينين فيه. أحني قامتي وألمح رجل البرميل مضطجعاً ورأسه في حجر رفيقته، بينما تداعب شعره الطويل الأسود. أدخل بخطوتي المعتادة، ناسياً أن للرجل أذنين كبيرتين يسمع بهما همس الفراشات، ما يلفت انتباهه لحركتي. ينظر إلى حيث أقف دون أن يراني. يتلفت حوله في حيرة. يسأل بائعة اليانصيب هل سمعتْ صوتاً. لا، لم أسمع شيئاً، تجيبه. أجلس أنا على الأرض، مخمّناً أنه قد حكى لها ما حدث، وأنهما الآن في حالة تفكّر. خرجتَ منذ الظهيرة ولا أعرف أين كنتَ، وعدتَ شاخصاً كأن أمراً وقع ولا تريد إخباري، تقول له. لا يرد، فأفهم على الفور أن كل ما تخيلته محض وهم. أراقب سكون جسده وشرود عينيه، أتخيل ألم السؤال. أريد أن أعرف أين كنت ومن قابلت، تسأل بائعة اليانصيب بشكل قاطع، ربما غيرة المرأة تدفعها هذه المرة، يرفع رأسه إليها ويرد على سؤالها بسؤال: من جاء بنا إلى هنا يا حبيبتي؟ وأين كنا قبل ذلك؟ تملّس بيدها على جبهته، أسألك يا حبيبي أين كنت، فتجيبني بأسئلتك المعتادة. سؤالي إجابة لسؤالك، كنت أدور في

الجزيرة بحثاً عن جواب. وماذا وجدت؟ تسأل. ما من شيء وجدته يقيناً، ما أدركه محض خيالات، أنا لا أعرف شيئاً، ولا أثق في قدرة حواسي على التقاط الأشياء، فمنذ دقائق سمعتُ دبات خطوات لم تسمعيها، هكذا أجد نفسي في منطقة الريب. تنظر إليه بتعجب، أنا أشفق عليك مما أنت فيه، ولا أدري لماذا لا تبحث عن رزقك وتعيش الحياة وتستمتع بها بدلاً من البحث في المجهول وإفناء عمرك هنا داخل كهف، تقول ساخطةً. لأن شيئاً بداخلي يا حبيبتي يخبرني أن مهمتي في الحياة ليس ما تقولينه، رغم ذلك سأفعله من أجلك. يستوي الرجل في مجلسه، سأجلس بالخارج، يقول. وأنا سأبحث عن طعام وأعود، تقول وهي تنهض مودعةً. أفتح لهما الطريق وأدخل في عمق الكهف، ألمح أوراقاً بيضاء وأقلاماً. رجل البرميل وصل لكوخي ولابد أنه قرر أن يكتب، غير أنني لا أعرف ماذا سيكتب.

أخرج من الكهف منحنياً وأسير عدة خطوات. مَنْ أنت؟ يأتيني السؤال من الخلف من رجل البرميل، مغلّفاً بالحيرة والخوف. أنا من تبحث عنه، أجيبه وأنا أقف على بعد أمتار منه. أنت من كنت تصنع التماثيل في المنخفض؟ نعم، هو أنا. لكنني لم أرك كما لا أراك الآن، أتكون محض فكرة؟ لا، أنا موجود غير أنني محتجب. ولماذا تحتجب؟ يسأل دون أن أجد إجابة مرضية، لأنك غير مهيأ لرؤيتي، قد يصيبك شر أو أذى، وربما تكون مادة تكوينك المختلفة عني سبباً، أقول وهو ينظر ناحيتي ويرتجف حد أنه من الرعب يجلس وينكمش في نفسه، وبعد صمت يسأل، وماذا تريد منّا جميعاً؟ أنحني وأربت على كتفه، لا شيء، أقول، سوى أن تكونوا سعداء وأن تختاروا مصائركم بمحض إرادتكم، دون أن يأذي

بعضكم بعضاً. يشرد الرجل، يصمت، يسكنه الرعب والحيرة بمقدار أكبر. فأتعجل الرحيل.

أنا قلق بشأن منحوتات الجزيرة، ولا أزال غير متصالح مع علاقة أمي بزوج أمي وأريد أن أعرف كل ما خفى عني من قبل.

أسير وأنا أحمل شعوراً بالذنب. حديثي مع رجل البرميل زاده رعباً. أفكر الآن فيما يفكر فيه، أحدس حيرته وألم سؤاله. هل صدّق ما قلته عن أسباب اختفائي؟ ما الفائدة أن يعرف بوجودي إن كنت أتوقف عن مساعدته؟ هل كنت أنوي أن أمنحه الراحة أم فعلتُ ذلك لأخلق من بينهم عدواً لرجل القضيب، صوتاً مناهضاً لأكاذيبه التي انتشرت وصدّقوها، فوضعوه في مرتبة الكاهن؟ أفكّر في رجل القضيب، أقول إنني لا أحيط علماً بكل نبوءاته لهم، ولم أسمع أو أقرأ الكلمات التي جذبهم بها. لا يزال أمامي طريقاً طويلاً لأفهم منحوتاتي، وليس بوسع أحد أن يساعدني مثل عروسة النهر.

أغيّر قِبلتي لأسير نحو غرب الجزيرة، في طريقي لرجل القضيب. أشعر بالإنهاك غير أنني أواصل. الجزيرة خالية تماماً كأن أحداً لا يسكنها، والظلام يحتويها كأننا في رحم يكتنفنا دون أن نجد سبيلاً للخروج. هل تحرّكت التماثيل بالفعل وصارت ذات حياة؟ السكون بهذا الشكل يثير ريبتي، وعدم رؤيتهم لي يشكّكني في وجودي ذاته. أرقد على الأرض وأتأمل السماء، فأراني طفلاً يجوب الشوارع من جديد، تائهاً. أصل في النهاية إلى البيت منهكاً، تعانقني أمي بشدة وتملّس على شعري، فتسحب

بيدها كل التعب، وأعاود اللعب من جديد. زوج أمي يحملني معه إلى المسرح، فأشاهد الممثلين وهم يقولون الحقائق ويدّعون أنها أكاذيب. كم أكذوبة ظننتها حقيقة؟ أنهض من جديد وأقطف ثمرة موز، آكلها وأنا أقترب من التبّة. أثناء صعودي أسمع تراتيل. هل يقيم الرجل صلاةً ما؟ أقف على باب بيته، أراه جالساً يقرأ من ورقة، كلاماً يشبه سجع الكهان. هل بهذا الكلام سيطر على أهل الجزيرة؟ أنصت إليه وأتساءل كيف أجاد هذه اللغة؟ ومن أين استخرج حكمته؟

أجلس في مكاني بينما يردد الكلمات مرات عديدة دون ملل، وألمح في النافذة رجل البرميل ينظر إليه في صمت. أنظر خلفي فأرى زوج أمي يراقبه بسخريته المعتادة، ويرحل قبل أن ينتهي الرجل. أفكّر في أن رجل البرميل لن يهدأ أبداً لأنه قلق، وأن زوج أمي يعاني حيرة الفنان. رغم ذلك، لا يستطيع أي منهما أن يجادله، يقومان بدور المستمع ثم يقوم كل منهما بتحليل ما يسمع على طريقته. رجل البرميل يفكّر في أن ذلك قد يحمله للحقيقة، وزوج أمي يعلم أنه ما من حقيقة سوى الوجود في ذاته. أمد يدي لأمسك بالرسالتين، وبينما ينهمك رجل القضيب في التلاوة والكتابة، أدسهما في جيبي وأخرج على أطراف أصابعي. أهبط من التبّة مسرعاً، وأجلس تحت شجرة وأقرأ، فلا تروقان لي، لا تعبران عن حالتي، عشقي لعروسة النهر لا يشبهه عشق آخر، وما من أحد يمكنه أن يعبّر عما أشعر به. ألقي بهما في الطريق وأتجه لكوخي وأجلس لأكتب:

« أنا النحّات وأنتِ صنيعتي »

عجنتكِ بيديّ، وشكّلتكِ بأصابعي، ومسحت عنك بقايا الطين ليكون ليس كمثلك شيء، ثم منحتك حرية وإرادة وانفصلتِ عني، لأبحث عنكِ طيلة حياتي، فلا أكتمل إلا بكِ. مارستُ عزلتي في بدء الخلق، حدثتُ عنك الأشجار والأنهار قبل أن أراكِ، تمنيتُ في صمتي جليسةً تسمعني، تحدثني، تزيل مرارات التيه وقتامة الليل، فكنتِ أنتِ. سرتُ معكِ في طرق لا أعرفها، واقتفيتُ نبضات قلبك فبلغتُ الريب. تعثرتُ في حفر لم أنتبه لها، فرفعتني يداكِ. تجهمتُ من شدة ألمي، فخبأتنِ في صدرك. أثلجتْ السماء وارتجفتْ الأرض وتهاوى كهفي، فكنتِ بيتي. نصف تفاحتي أنتِ، نصف روحي، نصف جسدي. نصفي الجميل .

تمارسين طفولتك في دلال، وأمارس أبوتي في صرامة، تضحكينٍ من طفولتي حيناً وأضحك من أمومتك في حين آخر. أرسم لك خطوطاً تصلين عبرها إلى اليد التي نحتتكِ، فتسيرين على قدم واحدة، ثم تبكين بُعد المسافات. أمسح الخطوط وأولي لك ظهري، تساعديني في مسح الخطوط وتولين لي ظهرك. ويسير كل منا في طرق مختلفة، دروبٍ في وديان، سبلٍ في جبال، أزقةٍ في سهول. لنلتقي في النهاية بابتسامةٍ، ونبدأ السير من جديد. بلا قِبلة، فالقِبلة هي البقاء معاً ».

أقرأ ما كتبت وأعيد قراءته. يروق لي فأحمل أوراقي وأتجه لعروسة النهر في مسكنها. أجدها جالسة على الباب، تنظر إلى السماء كمن يستلهم منها خبراً، وتخط بيدها خطوطاً لا يسعني فض محتواها. تأخرت كثيراً يا

نحات، قالت في حزن. كنت أتجول في الجزيرة وأرى ماذا يفعلون، ثم جلست فكتبت لك رسالة، أجيب. أي رسالة؟ تسأل في شغف. رسالة صغيرة غير أنها تفسّر لك من نحن. اقرأها لي، تطلب. فأقرأ: أنا نحات وأنتِ صنيعتي... وبينما أقرأ تسترخي فوق صدري. أحب حروفك يا نحات، غير أن ما قرأته يثير أسئلتي. اسألي، أقول لها. هل ما ترويه حقيقةً أم محض مجاز؟ أتفحص بأصابعي ملامح محياها المستند إلى صدري، المجاز ليس ضد الحقيقة يا عروستي، هو طريقة مختلفة لرؤيتها. أريد أن أقول هل وقع بالفعل أم تخيلته؟ ما نتخيله وقع بالفعل في خيالنا، وبالتالي فهو واقع بالنسبة لنا. وهل صنعتني أنت وعجنتني؟ تسأل مبتسمة. كل من نحبه نود صنعه، أو نصنعه بالفعل. وأنا، تقول، أحب أن أكون صنيعتك. أقبّلها فتبتهج وتستكين أكثر في حضني. كتبتُ اليوم مدخلاً لما أريد حكيه، أتريد أن أسمعك؟ تسألني، أوافق بإيماءة من رأسي، تشرع في القراءة.

ƞŸƐƣƓǁƐ Ĭ ǅ ǄŽǋǀǁƐ ǄŽƈ ƞǄŽŸǀƟǁƐ ƧǋƺǆǁƐǋ ƞǄŽŸƣȿǁƐ ƥŸƱƑƨŬƐ Ĭ ǀƟƚ¼
ǈǆƈ !ƙ ƑǀǰƣƟŸǋ ƑǊƓ ƱŸƟŸ ƥƑƬǋ ƞƨƓƑŸ ǄŽƳ ƃƑǄŽǁƐ Ƹ ƪ ǀǆƑǅ ƥƑǄŽ ǄŽƑǀ
ƔƥǋƑƜƚǄŽ ƥƦƜ ǀƚƑƓǅ ƑǊƽƥǅ ǄŽƈ ƘƓƚŸ !ǁ !ƙ ƑǊƽƥƚƣǁƐ ƞȿŸƟƨ ƞǆŽǄŽƦƈ Ĭ ǅ
Ĭ ǅ ǀ ƮƑǅ ǀƑǆƑƮŸƻǁƐ ǄŽƈ !ƙ ƞǆŸǀƨǁƐ ǈƬȿǆŸ !ǘƨ Ĭ ǅ Ʃ Ÿƴƚ ƞƚƬƻǆǄŽǋ
ǀ ƥǊƵǋ ƃƑǄŽǁƐ ƑǊǆƳ ƥƬƟǆƐ !ƙ ƑǊƮƴƓ ǀȿƓƈǋ ƑǊƮƴƓ ǀƱƩǅ ƑǊǄŽƨƐǋǄŽ
ǄŽƑƨǆǕƐ ƃƑƜ !ƙ ǛǋǊƨǁƐǋ ǛǘƚǁƐǋ ƒƑƮǊǁƐǋ ǛƑƓƜǁƐ ǀǆƑƓǅ ƑǊƨŸƥƑƮƚ
¬ƑǊǆǀƨǋ

هذا ما كتبته اليوم، وسأبدأ من الغد في كتابة ماذا يحدث للإنسان بعد ذلك، لقد قررتُ أن تكون حكايات منفصلة، قالت. وأنا في انتظار أن أسمع كل حكاياتك يا عروستي. أنظر إلى السماء فأرى اليوم السادس يطل، وأفكر في أن أنام عدة ساعات قليلة لأبدأ من الصباح الباكر في صنع تماثيل أخرى. أعانق عروسة النهر من الخلف، ونغوص في النوم، بينما أسمع خطوات خارج المسكن دون أن أعيرها اهتماماً.

اليوم السادس

رأيتُ أحلاماً ملتبسة، وطارت روحي إلى أماكن لم ترها من قبل. سرتُ في وحل وصل حتى ركبتيّ، وسبحتُ في بحر متهادٍ غير أن أعماقه ثائرة. رأيتني أركض فوق مسامير رؤوسها مدببة، وأقطف أزهاراً تتحول في يدي إلى قَرَدة ونسانيس. طاردتُ فهوداً وجدتها قططاً ما أن قبضتُ عليها، وشربت ماءً فما رواني رغم أنه عذب. دخلتُ في جنات أدت بي إلى نيران ملتهبة، والجمرات في راحة يدي تحولت لتفاحات خضراء يشوبها حمرة. أبصرتُ بيوتاً تهدم، وما أن أبتعد عنها حتى تقام، وأرضاً تنشق وتبلع السائرين فوقها بلا تحذير. هربتُ للسماء واختبأت بين الأدخنة، فلما أمطرت ألقت بي في أرض غريبة، يسير أهلها بسيوف وتتطاير الرقاب كرأس الجزرة، ويتحدثون بلغة أعرفها غير أنها غريبة عني. هناك، كانوا يرددون اسمي دون أن يروني، ويحكون عني حكايات لا أعرف عنها شيئاً، ورغم أنها أرض رملية، إلا أن اللون الأحمر كان غالباً على رمالها.

أصحو مع طلة الفجر الأولى. أتحسس شعري فأجده مبللاً، وأنظر لقدميّ فأراهما موحولتين. أستوي في مجلسي، مفزوعاً. أفكر، كيف

يمكن أن يحدث ذلك، وأتذكر آلاف المرات التي استيقظت فيها بعلامات على جسدي، ما بين قرصات وجروح، دون أن أفهم أبداً إن كانت آلام الروح تنعكس على الجسد، أم أني أسير نائماً، أم أن النسيان قدري في بعض الحوادث. ما أن أخرج من توهة النوم، حتى أنتبه لغياب عروسة النهر. كلما غفلتُ عنها، اختفت. نور الصباح لم يملأ الجزيرة بعد، أحب هذه الرائحة وهذا الضباب، أقول وأنا أقف أمام المسكن، أتطلّع الغد في سماء مدخّنة. خطواتي الأولى نحو النهر تبحث عن عروستي، بمعزل عن عقلي الذي يرفض مطاردتها على هذا النحو. لم تكن هناك، لم تكن تسبح كما اعتادت، ربما هي في وسط الجزيرة تتناول فطورها مع صنيعاتي الأخرى، وربما تستمع لنبوءات رجل القضيب. لا أريد اليوم أن أشغل بالي إلا بمنحوتات جديدة، عدد كبير من النسوة يهبن الحياة للعالم، يلدن من يعمرون هذا المكان المهجور، ويقدمون لي أجوبة لأسئلتي، من خلالهم أفهم ما تفكّر فيه هذه المنحوتات.

أقطف ثمرة تين وأفركها بيدي، آكلها وأنا في طريقي لمكان الصنع المعمّد بالنخلات والمحاط به شجرات سامقة. أنتبه لآثار أقدام صغيرة، وأفكّر أنها من كانت تحيط بالمسكن ليلاً. أقابل خالتي في مواجهتي وهي تسير شبه راكضة، عارية وحافية، تغطي فتحتها التحتية بيدها وتتلفت حولها في خجل. أقترب منها، واصلي السير حتى الأرض المستوية التي تلفها شجرات الجوافة، وادخلي البيت المشيد بالطوب اللبن، أقول لها همساً حتى لا تفزع، رغم ذلك تنتفض وتهرول. كانت خالتي عزباء، عاشت ضحية لأوهام الحب وسراباته، انتقلت من رجل لرجل لتكمل

حكايتها الأولى، ولم تكتمل. أنظر إليها بينما تركض وأتساءل، أي مصير ستختار لنفسها في حياتها الجديدة، أي مسلك. بينما أفكّر، أرى أقرباء أمي ومن خلفهم عمي وزوجته يأتون في سرب تائهين، فأدلهم على الطريق وأتجه لقبلتي.

أهبط للمنخفض وأجمع أكواماً من التراب وأمزجها بالماء. أعجن نساءً لا أعرفهن، بوجوه مرت على حياتي دون أن تترك أثراً (كيف لم تترك أثراً وأنا أنحتها الآن؟) ستصير صوراً بلا حكايات أعرفها، وليس بوسعي أن أخمّن مصائرها. أعمل بسرعة، ربما دون إتقان، لأنجز ما أستطيع في أقل وقت ممكن. منحوتة وراء أخرى، وأرقد قليلاً لأستريح، فألمح رجل البرميل من جديد، يقف بين الشجرات ويطل عليّ. عشر نسوة سيكون عدداً كافياً الآن، لذلك أشرع في صنع رجال. أعجن الطين وأنا أفكر في رجل القضيب، أي سلطة مزيفة يود أن يحوزها، وما الدرب الذي سيقودهم إليه. أتوقف عن العمل وأنا أتساءل عن جدوى ما أفعل، وهل محاولة فهم العالم تعد سبباً كافياً لتكبّد كل هذه الصعوبات. أظن أن بوسعي أن أفقد كل شيء مقابل أن أفهم كيف تفكّر صنيعاتي، وكيف ظنت أن يداً خارجية تشكّل مصائرها، وأن طقوساً بعينها تضمن لها الخلود.

تشتد الشمس ويختفي رجل البرميل. أشعر ببطني خاوية، ويشتد قلقي على عروسة النهر، وأفكّر في أنني في حاجة للاستحمام. أترك صوري وأتجه للنهر، أغوص في الماء ويخطر ببالي، ربما للمرة الأولى، حياة أبي الغامضة. أنا لا أعرف ما يكفي عن هذا الرجل، حتى هنا لم أقترب منه ولم

أدرك سبب عزلته. هل لا يزال في مرحلة تكوين فكرة عن العالم؟ أم أنه فهم أن الموت نهاية كل شيء فصار عدمياً؟

أخرج من الماء وأتجه للمسكن، فلا أجد عروسة النهر. أبدّل ثيابي وأسير صوب مركز الجزيرة. ألتفتُ لتكاثر عدد الخراف والدجاجات والديكة والنعاج، وأراها اعتادت على الحياة هنا بسرعة. وفي ركن قريب من الضفة، أرى تعريشة واسعة يجلس فيها زوج أمي ورجل البرميل وبائعة اليانصيب وخالتي بجانب أمي وعمي وزوجة عمي وأقرباء لي، ويختفي أبي عن المشهد. يتوسطهم رجل القضيب يتحدث، وبالقرب منه عروسة النهر. أقترب وأجلس خلفه، بيننا حجاب من جريد النخل. ومن ثم فلا مناص من تشييد معبد لكسب محبة الصوت الذي نسمعه، والاحتفاظ بتعويذات يكتبها لكم المطّلع على الخبايا وترديدها بمحبة بالغة في أوقات بعينها، يقول لهم بصوت معدني. لكن ما الذي يريده الصوت؟ تسأل خالتي. يريد بعض الطقوس والذبائح، لا يود أذاكم في شيء، بل بالعكس، يحبكم كثيراً، ومن أجل ذلك سنستخدم الخراف والنعاج كقربان له، يجيب رجل القضيب. ينهض رجل البرميل دون أن ينطق بكلمة، يسير شارداً كأنه يبحث عني. زوج أمي ينظر إلى رجل القضيب بمكر، يضحك من فكرة الذبح والتعاويذ، فتنظر إليه أمي بلوم وتطلق نظرة آمرة ليصمت، بينما يبادلها النظر بأنه ينتظر نصيبه من كل ذبيحة. عروسة النهر تلتزم الصمت، تبدو متشككة، في مقابل أمي التي تميل للتصديق، أو تعاني من الخوف إن كان صادقاً فتصيبها لعنة ما. الملفت أن صنيعاتي الجديدة أكثر تصديقاً ورعباً، ويبدو أنها ستتبع رجل القضيب بلا جدال.

ينهض رجل القضيب ويصطاد خروفاً، يخرج آلة حادة من جيب ثوبه ويعلمهم الذبح. يراق الدم فيأمرهم أن يمسحوا به وجوههم، يفعلون ذلك، بعضهم بريب وبعضهم بيقين، بينما يطبع زوج أمي بأصابعه الخمسة على التعريشة، فينتبه رجل القضيب لذكاء الفعل، فيأمرهم أن يكرروا صورة الكف على بيوتهم عندما يشيدوها. يسلخ رجل القضيب الخروف ويضعه على نار متقدة، تفوح الرائحة فيعبّر الجميع عن جوعهم، بينما يجلس رجل البرميل على الضفة، ينظر في الماء صورته المهزوزة مع حركة الموجات الصغيرة، ويرسم بسبابته خرافاً ونعاجاً متراصة على التراب. ربما يفكّر أن يمتهن رعي الغنم، وربما يشير إلى مستقبل أهل الجزيرة حال تحولهم لقطيع. يرقد ناظراً إلى السماء، يتساءل بصوت مسموع إن كانت سماوات مرفوعة أم محض دخان. تقترب منه بائعة اليانصيب وتقدم له لحماً مشوياً، لا شهية لي يا حبيبتي، يقول معتذراً. لكنك لم تأكل منذ يومين وأراك شاحباً، تترجاه. سآكل الآن ثمرة، لا تقلقي، يقول لها ويربت على كتفها. ثم ينهضان معاً دون أن يرياني وأنا الجالس بجانبهما أنصت لحيرتهما. يسيران نحو كهفهما دون التفاتة ولا كلمة، كأنهما مسيران إلى قبلة لا رجعة منها.

أجر قدميّ كرجل عجوز وأقترب من بيت أبي. أراه جالساً يلعب بقطعة طين، يكوّرها ويفردها دون أن يجزم أمره فيها. يراقب الصور وهي تتحرك وتلتف حول رجل القضيب الذي يلقي تلاوات وترانيم بصوت معدني وجميل، بعبارات تحمل حماساً ما، ونقيضه في نفس الوقت، وبقدر ما تدعو للحب تدعو للكراهية. تصيبني الدهشة مما أسمعه، وكذلك

أبي، الذي ينتفض من مكانه متسائلاً عن ماذا يريد أن يقول هذا الرجل. أتحرك نحو الجمع الذي يقبّل يديه وقدميه، باستثناء زوج أمي، طالبين في خشوع أن يغفر لهم جهلهم، بينما هو بتواضع زائف يربت على أكتافهم وظهورهم. ما يلفت انتباهي أن عروسة النهر بالغتْ في تقبيله، حد أنها قبّلته في خديه وعانقته كحبيبة، دون أن تنتبه لوجودي. قالوا لي من قبل إن الجراح العميقة لا تنزف، مع ذلك أشعر بنزيف. يا وجعي، أقولها دون أن أنتبه، فيرن صداها في الجزيرة، وتنكمش منحوتاتي من الرعب، ويردد رجل القضيب ما قرأه من جديد، فيحتمون فيه.

أعود إلى كوخي وأكتب رسالة أخرى لعروسة النهر.

أنت معبد وأنا ناسك

« بنيتُكِ بأحجار ثمينة وكسيتُكِ بالحرير المطرز، وضعتُ بداخلك مغناطيس العشق ورسمتُكِ إلهة، لتكوني دوماً محرابي المقدس، وقبلتي التي أتوجه إليها في كل ساعات حزني وغبطتي، شكي ويقيني، خوفي وسكينتي، وبكل خشوع عاشق لمعشوقته أطوف حولكِ، أنظر إليكِ، ألمسكِ بيد مرتجفة تارة وآمنة تارة أخرى.

أبدأ يومي بتراتيل عشق لا يسمعها سواكِ، أؤدي صلواتي برضا من لا يشرك بمحبوبته شيئاً سوى عبقها، وأنفاسها التي تنفخ في برودتي فتلهبها. أشتم أريجك في وسط النهار فتتجدد روحي، وأشعرك تعبرين بخلايا جسدي فتمنحينها حياة، تشتد الشمس فأتظلل بكِ، ويفرد الليل

جناحيه فيأتيني ضياؤك، وعند النوم تصير كسوتك غطائي، فأسبح في أحلامي معك وأنا في حرمكِ.

أطوف حولك في اليوم مئات المرات، ألمسكِ بيدي مبتسماً، ومثل طفل لا يعرف الخجل أطبع قبلاتي من حين لآخر دون إبداء أسباب، أضحك من تسامحكِ وأطلب المزيد. أتحجج بمسح كسوتك لأخلع عنك غطاءك، أتأمل بنيتك بعد لحظة من عبور الدهشة، أتحسس أحجارك الثمينة بأطراف أصابعي، وأعرف عن يقين معنى الذوبان. أمر بجميع معابرك السرية، وأصل لقدس أقداسك. قِبلتي ومستقري. أقدم في زواياكِ قرابين تليق بعشق أبدي، بخشوع قلب لم يعرف الهوى من قبل، ويؤمن بالمعجزات. كل الممرات تؤدي، يا معبدي، إلى جزئك النابض، وهناك، حيث المذبح يعانقني، أقوم بطقس تطهري من كل آثامي، فأولد من جديد. أواصل طوافي حولك كناسك لا يعرف في دنياه سوى طقوس عبادته. وعندما تهب العواصف وتحجب الرؤية، أولي وجهي شطر المشرق والمغرب، فأينما وليتُ وجهي أجدكِ، فأنتِ المنتهى.

بيني وبينك، يا عروستي، مثل ما بين الناسك والمعبد، الأول يشيّد الأحجار ويرى اكتمالها فيزينه، يقدّم القرابين ويشعل البخور ويقدّسه؛ بينما الثاني ينظر في صمت، لا يتحرك، وما يمنحه في الحقيقة ليس منحاً بقدر ما هو شعور الأول بفرحة حضور ما صنعه بالفعل بيديه، حصاد ما زرعه بنفسه. مثل صياد صنع سمكة وألقاها في البحر، ثم رمى شبكته ليخرجها. أي وهم هذا الذي نصنع منه حقائق! وأي

حقائق تلك التي تصير وهماً! وأي عشق، يا عروستي، يضاهي عشقي لكِ، أنا من لا أنتظر منكِ شيئاً وأهبك كل شيء! »

أنتهي من الرسالة دون تنقيح أو زيادة، وأطوي الورقة وأضعها بين أوراق أخرى وأنوي ألا يراها أحد، أقصد عروسة النهر تحديداً. كيف يمكن أن أسميها رسالة دون أن أوجهها إلى أحد؟

أبعد عن رأسي الصورة التي تثير غيرتي، وأحاول التفكير فيما يحدث في الجزيرة. أعتقد أنني الآن على الدرجة الأولى في سلم فهم صنيعاتي، وأن رجل القضيب في طريقه للقداسة. أعتقد أيضاً أن العالم بدأ في اكتماله، وأن الأيام القادمة ستحمل قرارات أنتقل من خلالها من طور الجهل إلى طور المعرفة، وحتماً سيحدث ما لم أكن أتوقعه. وماذا أتوقّع؟ أتساءل وأنا أعرف أن توقّع الشيء مبني على جزء من المعرفة، وأن معرفتي تكاد تكون منعدمة، فما عرفته في الحياة الأولى ليس إلا قشوراً للحقائق، أو أكاذيب.

أخرج من كوخي وأسير تحت الشمس القائظة. أتجه للمنخفض وأنا أجر قدميّ متعباً، غير أن صنع صور جديدة يحمّسني. لا مفر من ملء الجزيرة بمنحوتات تهبها الحياة. ألمح من بعيد أمي وزوج أمي، يقف كل منهما في مواجهة الآخر، في تحدٍ. هذه ليست وقفة محبين في لحظة صفاء. أقترب لأنصت، فيفترقا قبل أن أصل إليهما. أيكون لما حدث اليوم من رجل القضيب أثراً؟ هل أثارت سخرية زوج أمي حفيظتها فأنكرت

فعلته؟ أم أن ما حدث بينهما من علاقةٍ خلق الاختلاف بدلاً من الوفاق؟ لماذا كل ما يجب أن يقرّب بين البشر يكون هو نفسه سبب الفراق؟ ولماذا الوصول إلى القمة لا يتبعه إلا السقوط إلى السفح؟ أواصل خطواتي، مثابراً، وأفكر أنه يوماً ما سأدرك ما تفكر فيه منحوتاتي وأحيط به علماً.

أهبط للمنخفض وأبدأ عملي من جديد. أضيف للنساء نسوة أخريات، بأعداد مضاعفة، وأضيف للرجال أعداداً لا بأس بها. لا أتقن الصور الجديدة لأنني، في حقيقة الأمر، لا أعرف لها حكايات، ولا أحمل لها ذكرى. الفن لا يأتي من العدم، بل من الاضطرام واحتكاك الروح بذاتها، من هذه الوخزات التي تنقر في ورم يشبه المثلث المعكوس، كلما صعد لأعلى كلما تضخم. لذلك، لا يمكن أن نجيد صنع ما لم يلمس القلب، ويشغل العقل، فنحن في الحقيقة نصنع انطباعاتنا وأفكارنا، وفي غيابهما لا نصنع إلا مسوخاً، صوراً مشوهة، أرواحاً صلبة. أفكّر في أن هذه الصور الجديدة لن تكون خالدة، لأنها بلا حكايات مكتوبة، وأفكّر أيضاً في أنه لا وسيلة أمامها لتضمن الخلود إلا بكتابة حكايتها الخاصة بنفسها. رغم ذلك، أبذل جهداً لاسترجاع وجوه عبرت، أو عبارات قيلت، أو إيماءات ذات مغزى، لتكون صنيعات حية، غير أنني لا أدري هل سيكون ذلك كافياً لصنع صور مكتملة. لو أضفتُ إلى ذلك ضعف موهبتي وانحصار خاماتي وندرة أدواتي، لأمكن تكوين صورة عما تكون عليه المنحوتات التي ستسترد الحياة خلال الساعات القادمة.

أتجه للنهر وأخلع ثيابي، أقفز في الماء بكل قوتي، وأعوم. تأتيني أسئلة متعاقبة، بلا رابط بينها. هل اختارت عروسة النهر رجلَ القضيب؟ وهل ستتحقق نبوءات الرجل؟ أنفض رأسي لتأتيني صورة رجل البرميل، هل سيخالف الجمع ليسلك بنفسه مسلكاً آخر؟ أي مهنة سيمتهن؟ كل ما أعرفه عنه أنه كان بلا مهنة، بلا تاريخ. ورفيقته بائعة اليانصيب، التي لم أكن أعرف أنها رفيقته من قبل، كيف ستصير بائعة يانصيب؟ وأنا ابن من في الحقيقة؟ وأبي فيما يفكّر؟ أسترخي على وجه الماء، طافياً مثل مركب ورقي. ثم أخرج بعد أن تميل الشمس قليلاً. يقابلني نسيم الجزيرة بعناق يلسع جسدي العاري. أرقد تحت الشمس حتى أجف، فتهاجمني الرغبة في عروسة النهر، غير أنني أبدأ في تدريب خيالي على أن يتجنبها حتى لا أشعر بألم.

أخطو إلى المسكن، وكالعادة لا أجد عروسة النهر، لكنني أستحسن غيابها الآن. أسحب أوراقها من المكان السري الذي دلتني عليه من قبل. أتردد قبل أن أقرأ، غير أن الفضول يدفعني دفعاً. فأقرأ:

ƕǁdžǏǀƨ Ǐǆ DžNjDžƑdžǏ ƸNjdžƑǀ ƴƥǏƦƜǁƸ ǘljǢ DžǢ ƒǏǓǁƸ ǀƑƟdžǁƸ ƑNJǏǢ Ǐdžƹ‡Ǵ¼
ƅƑDž DžDžDž DžNjǴƥ ƪǏNj ƥNjǏǓǁƸ DžNjƟǴƤǏNj ƥƑDžkǁƸ DžNj‡ǀƉǏ DžƑDžǓƑǴ DžNjƻƟ‡ǂǏNj
ƦdžƑǏƟǢ DžNjƴƜǓƮǏNj ǀNjǏǴ ǘǴ ǀƑƻǏƨNj ƕƺNjƨDž ƦǂNjǏǴ DžNjƣǏƪǏ ƥNJdžǁƸ
DžNjƥkƑǀǂǏNj DžNjƜNjƦǂǏ ǘƑƟǁƸ ǇƤǀj Ă‡Ɣ DžNjdžƨNj !ƑǏǢ ǀƥDžƺ ƅƸƥƴǁƸ Ǐƺ
ƸNjkƟǴƺ ǘ‡DžǁƸ Ǐƺ ƸNjƽƥƷNj ƥƜƮǁƸ !NJǴƑƬƉƺ DžNjǂNjDžǏNj DžNjƣǏƪǏ !k
DžNjǴǏƜDžǁƸ ƥNJƽ ƕ‡ƏƨǓƸ ƴƥkǀ ƱDžNj ǂƥDžǁƸ ƣƑƨNj ǂƥNJǁƸ ǢƣǴƺ ǘ‡ƣǁƸ DžƔ

[illegible]

أنتهي من هذه الورقة وأنا أفكّر، أيكون تصور عروسة النهر للجزيرة صحيحاً، أتُعاد من جديد قصة عالمي الأول بكل تفاصيله المفجعة. هل هي رؤيتها حقاً أم أنها محض حكاية، حيث الغواية أحياناً تدفعنا لنخالف ما نؤمن به، إن كان لدينا يقينات من الأساس. أنظر أعلى الورقة وأردد «بلغني أيها النحات الطيب» وأتساءل، لماذا توجه حكايتها لي؟ كم أنتِ محيرة يا عروسة النهر، فلا أعرف أين يستقر قلبك. أمسك بالورقة التالية وأقرأ:

[illegible]

أضع الورقة بجانبي وأشرد. أكرر أسئلتي من جديد وبحيرة أكبر، هل تكتب عروسة النهر مستقبل الجزيرة؟ وكيف لها أن تعرف ذلك؟ أنهض وأنا أفكر، كيف يمكن أن يصل الخيال إلى حقائق لم يبح بها الواقع بعد؟ كيف له أن يقرأ الكلمات المشفرة؟ أخرج من المسكن وأنا أتساءل، كيف يستطيع الرجل إشفاء المرضى وتحقيق الأحلام وخلق الآمال؟ كيف استطاع أن يفهم أن منح الأمل في حقيقته يمثّل مفتاح الحياة وزمام السلطة؟ أصل دون أن أنتبه إلى المنخفض، فأهبط إليه وأبدأ، بحركة ميكانيكية لم يسبقها تخطيط، في صنع أبقار وجاموس وحمير وخيول وقطط وكلاب وطواويس وبغبغانات وعصافير وكروانات، بريب أنها ستبقى محض زينة في الجزيرة.

تغيب الشمس فلا يتبقى منها إلا القرص البرتقالي، وما يلبث أن يزول مخلّفاً وراءه ظلمة. أشعر أنني وحيد. كيف لا تستطيع عروسة النهر أن تملأ حياتي، وكيف تثير صنيعاتي حيرتي لهذا المدى؟

أقترب من النهر وأنزل خطوتين. أغسل يديّ وأنا أفكّر في رجل البرميل، وبائعة اليانصيب، في حاضرهما معاً ومستقبلهما، في الطريقة التي سيتواصل بها الرجل المنعزل مع الجزيرة وأهلها، والدرب التي ستسير فيه المرأة لتكون بائعة يانصيب. لا أظن أنه سيكون راعياً للغنم كما قال، هو أقرب للكاتب، بروحه الضالة وهواجسه وأسئلته وفضوله، بعينيه الزائغتين وارتياباته، بأرقه واكتئاباته، بحبه للحياة وعدميته في نفس الوقت. قد يتشابه أحدهما مع الآخر، غير أن الراعي لا يكون راعياً إلا بالقطيع، بينما

الكاتب لا يكون كاتباً إلا بتفرقة القطيع، ومنحهم أملاً في النجاة منفردين. فلسفة الراعي، إذن، تقوم على الجماعة، في مقابل فلسفة الكاتب القائمة على الفرد. ربما لهذا يتميز الرعاة ببصر حاد، لرصد ما يدور حولهم ورؤية البعيد، إنها طريقتهم للحفاظ على قطعانهم، بينما ينفرد الكاتب بالسمع المرهف، لالتقاط الآهات، وتعقب الكلمات، وتفنيد الشكوك واليقينات. يصح أن يكون الكاتب أعمى، أما الراعي فلا يمكن. ويصح أن يكون الراعي أصم، أما الكاتب، لو صار ذلك، سينتهي.

أتساءل، لماذا أفكّر في هذا الآن، وكيف في كل مرة أستبق الأحداث بتوقعات لا تصيب ومع ذلك أستمر بلا ملل. أسير تحت قمر مكتمل، ويعانقني هواء رطب، وتمنحني موجات النهر المتهادية سكينة تسكّن أسئلتي وتشعرني بغبطة. أفاجأ، للمرة الأولى، بأبي وأمي يسيران معاً، جنباً إلى جنب. يأتيان في مواجهتي، وبينما تحكي هي، يستمع لها بإنصات، لكن بوجه ينقصه الفرحة التي اعتدتُ أن أراها عليه كلما لاحت له المرأة. ينظر إليها مرة، ثم ينظر إلى الأرض، ويرفع رأسه إلى السماء. أراها تتحسس بطنها، وتقف. أعرف أنك تحبني يا صانع الفخار، ولا أحد يحبني مثلك، تقول له، وتواصل، لكن في هذه البطن جنين من رجل آخر قرر ألا يكمل حياته معي لأنه يرفض الزواج، يقول إنه يمتعض من هذه الحياة الرتيبة والمملة، ويرى أن الزواج مغتال للحب، وأنه ما من حب أبدي، ويرفض أن يمنح الدنيا طفلاً، ويعتبر ذلك خطيئة كبرى. يحدّق فيها أبي، كنت أتمنى أن أكون أول من لمسك، أول من قبّلكِ وترك نطفته بداخلك، وكنت أتمنى أن أكون أنا أبو هذا الطفل الذي يتكوّن

بداخلك، ورغم استحالة ذلك، أريد أن أتزوجك، أن أكمل معكِ ما تبقى من حياتي، وأن أصير بطريقة ما أباً لابنكِ، يقول أبي ويعانقها. وهل تؤمن بالحب الأبدي؟ تسأل مرتابة. لا أعرف ما الأبد، غير أنني أعرف ما الحب، يجيب. لكن النساء تحب الاستقرار بينما الرجال يحبون التعدد والتغيير، إنهم ملولون، تقول بحثاً عن كلمة طمأنينة. يا مطربتي الجميلة، عندما يدخل الملل بين اثنين وينقطع الحوار، تموت العلاقات، ويبحث كل واحد عمّن يمنحه ما يفتقده مع الآخر. أنا أحبك يا صانع الفخار، وسأحبك دوماً، تقولها بسرعة، ثم تصمت لحظات. أنا أيضاً معجبة بك، وشغوفة بصمتك وغموضك وعملك، تبتسم وهي تقول. فيعانقها أكثر. ثم يواصلان السير، وأسير أنا في الاتجاه المعاكس، بسؤال إضافي إلى أسئلتي الأخرى، أيكون هذا الطفل أنا؟ أيكون أخاً آخر وُلِد قبلي دون أن أعرف عنه شيئاً؟ من أبي؟

في شرودي أجدني بالقرب من الكهف، وألمح بائعة اليانصيب تخرج من هناك بسلال خاوية ونفس حائرة. ما الحوار الذي دار بينهما وجعلها بهذه الصورة؟ وبينما أشرد مع خطواتها المرتبكة، يخرج رجل البرميل ويقف عند المدخل، ينظر ناحيتي كأنه يراني، ويسير عدة خطوات ليقترب مني. أعلم أنك هنا، يقول فلا أرد. وكلما أرهفت السمع سمعتُ خطواتك المتتابعة، حتى أظن أني أسمع أنفاسك، ومع ذلك أشك في وجودك، وكلما تأملتُ لحظات وسلّمتُ نفسي لنفسي يملؤني شعور ما يدلني عليك ويخبرني أنك ترعاني، وفي غمرة ارتياباتي أتساءل إن كنت حقاً محجوباً عني أم أنا العاجز عن رؤيتك، يقول ويجلس على الأرض.

أنظر إليه وأفكر لحظات قبل أن أنطق، أنا هنا غير أنني لا أرعاك، ولا أريد أن أتدخل في مصيرك، بيدك وحدك أن تسير في الدرب الذي يروق لك، وبيدك وحدك أن تصنع سعادتك أو تعاستك، لك إرادة واختيار، ولك عقل وحرية، ولك حياة، أقول له. وماذا عن الكاهن؟ ألستَ الصوت الذي يدله وينبئه بالغيب؟ يسأل بنبرة حادة، ومتمردة. ولماذا تصدق الكاهن؟ ولماذا يجب أن يكون هناك صوتاً ينبيء بالغيب ويرسم حيواتكم ويفرض عليكم طقوساً؟ ولماذا يجب أن تمنحوه سلطةً لم أهبها أنا له؟ أجيب أيضاً بنبرة حادة. لو كان الأمر كذلك، لماذا تصمت أمام الاحتيال؟ أليس الصمت إحدى علامات الرضى؟ يقول راجياً. أصمتُ لأنني قررتُ الصمت منذ البدء، أقول، لأنني قررتُ ألا أتدخل في اختياراتكم، فكل ما أبغيه أن تحققوا سعاداتكم، كل حسب ما يرى، شرط ألا يضر بعضكم بعضاً، كما أنكم تتمتعون بحرية، فلا تهدروها. يرفع وجهه ناحيتي ويقول بأسى، لو كنت مكانك لكشفت الحقيقة لهم وجنبتهم الحيرة. الحيرة والارتياب والتجربة والخطأ ما يصنع الحكمة، غير ذلك كأنني أحرث البحر، أقول وأنا أتجول حول الكهف. يظل يناديني ويتحدث معي دون أن أعيره انتباهاً، فتظهر بائعة اليانصيب من جديد، وتجده على هذه الحال، فتهمهم بكلمات وتجالسه، فيتناولا بعض الثمرات بينما أودعهما أنا من بعيد.

أواصل سيري وأنا أفكر فيما تظنه بائعة اليانصيب في رفيقها. أتظنه مجنوناً؟ أم ستقول ما أتوقع أن يقوله رجل القضيب عنه، أنه ملموس. على أي حال، أريد أن أراهم وهم يكتشفون الحقائق بأنفسهم، وأثناء ذلك أحقق أنا ما أبغيه: أن أعرف ما خفى عني من ناحية، وأن أفهم فيما وكيف

يفكرون من ناحية أخرى. أمد يدي وأقطف ثمرة جوافة، وأقترب من التعريشة التي يتجمع فيها عدد من أهل الجزيرة بصحبة زوج أمي، الذي يبدو صامتاً وحزيناً. وفجأة تظهر عروسة النهر بصحبة رجل القضيب، يسير مزهواً بقربها وبنفسه، كأنه يود الطيران لا السير على الأرض. أفكر، كيف كنت أتعاطف مع هذا الرجل من قبل؟ وكيف آلمتني وحدته من قبل؟ أختبيء بين الأشجار كيلا تراني عروستي، وأراقب ما يحدث في صمت. يتخذ رجل القضيب مكانه بينهم، وبجواره عروسة النهر. يبدأون في سؤاله ويجيب عليهم في هدوء وطمأنينة، ثم يتلو عليهم تلاوة يلومهم فيها على شرودهم، على تقصيرهم في أداء واجباتهم نحوه، في ارتيابهم فيما ينصحهم به وترددهم في اقتفاء أثره. ثم يضع الورقة في جيبه وينهض، بينما يقتربون منه ويقبّلون يده في لهفة. بعدها يرحل بمفرده ويختفي من المنظر. وتدور المناقشات حول ما قال دون أن تصلني، وتخرج عروسة النهر من التعريشة فأسير بجانبها. أين كنت يا نحات؟ كلما غبتَ كلما افتقدتُك، وشعرتُ بالملل يجتاجني، تقول وتنظر إليّ بتوسل. يا عروسة النهر، أنا كلما غبتُ عنك اختفيتِ، كأنك تنتظرين غيابي كي تحصلي على حريتك، أقول. تمهل وانظر، أنت تغيب كثيراً وفي أماكن لا أعرفها، وأنا أثناء ذلك أريد أن أفهم ما يحدث حولي وأحتاج إلى الحديث مع أهل الجزيرة، أريد كذلك أن أفعل ما يخصني، ما ينبع من داخلي وينتمي إليّ، لنتفق على أن لديك ما تفعله كنحات، وأن لديّ ما أحياه في غيابك، تقول. لكنني أبحث عنكِ كثيراً ولا أجدكِ، أرد. يُهيأ لك ذلك، أما الحقيقة فأمر آخر، أنت تشعر بمرارة الفقد بمجرد أن أغيب عن ناظرك، كأنك تريد

وضعي في قفص لتشاهدني وحدك طوال الليل والنهار، تقول مبتسمة. أنظر إليها بخجل، أردد بداخلي أنني لو تركتُ نفسي لنفسي، ما استسلمتُ للكرى ولا مددتُ يدي لصنيعات أخرى كي لا أنشغل عنها بشيء. أبتسم وأنا أفكر أنها الأمر الوحيد الثابت في أحلامي، وكأنها تنتظرني كلما غفلتُ في مكان ما. أنتبه وأسألها، فيما تفكرين عندما أغيب عنكِ؟ ترفع يدي على كتفها، وتسير بدلال وتتحدث بغنج، أفكر في كيف يمكن أن أساعدك على فهم العالم، وأثناء ذلك، أفكر في كيف أحمي نفسي من كل الشرور التي تحيط بي. لا أتفق معكِ في الثانية، ولا أعرف كيف تريدين أن تحققي الأولى، أقول. سأحقق الأولى بالكتابة، هي طريقتي المثلى لفهم العالم وتقديم تصوري إليك، وأعلم أنك لا تتفق معي في الثانية لأن بقدرتك حمايتي، أليس كذلك؟ تسأل. تعلمين الجواب جيداً، أجيب. جيد، لكنني أريد أن أحمى نفسي بنفسي، أن أحقق أرباحي من خسائري، وأن أكتسب خبرتي من تجربتي، تقول بحزم. وكيف يمكنك الكتابة والزراعة والتجول في الجزيرة وفهم العالم في ذات الوقت؟ أسأل مستنكراً. كل ما ذكرته يا نحاتي يؤدي إلى فهم العالم، البذرة التي تصير شجرة، والورقة التي تذبل بعد اخضرار، وسطوع الشمس وغيابها، كلها أشياء تحدث بتلقائية، غير أنها تتشابه معنا، الأهم من ذلك أن الكتابة تعيد تشكيل الصورة الممزقة، وتستعين على ذلك بحكايات أهل الجزيرة، بمخاوفهم وآمالهم، بترقبهم للغد، وهو سؤالهم الأكبر. وبعد هذه الأيام، هل أمكنك فهم شيء؟ أسأل وأنا أعرف الجواب، غير أنني أود أن يطول الحديث. أنا في طور الفهم، غير أن الإدراك في حاجة إلى وقت أطول، يكفيني أولاً معرفتي بقدر

الأمل لديهم، وقلقهم، غير المبرر، من المستقبل، إنها المفاتيح الأولى للسيطرة عليهم، على ما أظن، تقول بإيماءة المتشكك رغم علمي بيقينها، فأتوقف وأضمها إليّ. بقدر ما تثير إعجابي تثير مخاوفي، وكأن الإعجاب والخوف يسيران في خطين متوازيين. وبقدر ما أشعر أنني أمتلكها، أشعر أنها تتسرب من بين أصابعي، كالقابض على الماء. في أي ساعة من العمر الطويل سأشعر بطمأنينة؟

أكلمك يا نحات، ألا تسمعني؟ أنتبه على سؤالها، شردتُ يا عروسة النهر. وفيمن تشرد وأنت معي؟ تسأل بدلال. أمسح خدها بيدي، فيكِ يا حبيبتي. وهل تريد أن تحكي لي شيئاً؟ لا، أريد ألا أحكي، صوتي أعرفه جيداً ولا أشتاق إليه الآن، فقط أحن إلى صوتك، نبرتك الدافئة، عينيكِ الشقيتين بلونهما التفاحي. طيب، سأحكي لك ما حدث اليوم في الجزيرة، بينما أجهز لك طعاماً. أي طعام؟ أسأل. ألم تشهد الدجاجات التي ترقد بالخارج؟ سأشعل النار وأشويها لنا، قالت وهي تهم بالحركة. يا عروستي، أنا لا آكل اللحوم، أنا أتغذى على الثمرات فقط. كيف ذلك؟ سألت مستغربة. لا يمكنني أبداً أن أزهق روحاً، ولا يمكنني أن أحيا على الموت. لكننا جميعاً نحيا على الموت، حتى القرابين التي نقدمها للإله محض ذبائح، قالت. هنا تحديداً يكمن سوء الفهم، فما من إله إلا ويثير تقززه شكل الدم ورائحة الذبح، وإن كان أهل الجزيرة يستمتعون بطعم اللحم ويتغذون عليه، فلا بأس، شريطة ألا يظنون أنهم بذلك يقدّمون معروفاً للإله، ولا يدّعون أنها وسيلة للتقرب إليه، أقول. على أي حال، كنت أود شي الدجاجتين من أجلك، وما دُمتَ لا تريد، فأنا أريد بعض

التين، نفسي تهفو إليه منذ الصباح. أقترب من شجرة التين وأقطف لها بعض الثمرات، ونجلس على ضفة النهر، بالقرب من المسكن، ونأكل، تحت سماء منيرة ونهر ساكن.

أتعرف؟ المرأة ذات اللسان الطويل الملفوف بدأت اليوم في جمع الدجاجات والديكة والخراف والنعاج، وساقتها حتى الكهف الذي تعيش فيه مع رفيقها ذي الأذن الكبيرة، وقالت إنها سترعاها وتبيعها لمن يحتاج، وعلّمت بعصا حول قطعة أرض مستطيلة، وقالت إن زوجها سيزرعها. وشيّد الرجل الطويل الساخر مسرحاً بألواح من الخشب، وقال إنه لتسلية أهل الجزيرة، وإنه سيحتاج إلى عدد من الناس ليقوموا بأدوار مختلفة، وأضحكني جداً لمّا قال إننا سنمثل حقيقتنا التي لا نريد لأحد أن يطلّع عليها إلا من وراء قناع، ثم قال إن بداخل كل منا مئات الشخصيات، فقط نظهر ما نريد وقتما نريد، ونخفي ما لا نحتاج إليه غير أنه يظل كامناً.

أواصل النظر إليها وأفكر، الآن تتكوّن الملامح التي أعرفها، وكل منهم يسير في الطريق الذي يحدد مصيره. هل يختار كل منهم حياته السابقة، بنفس الاختيارات والأخطاء؟ أيعني ذلك أن اختياراتنا الأولى هي الأفضل ولا داعي للندم؟ الآن أمسك بالخيوط الأولى لشخصية زوج أمي، لقد كان رجلاً مثيراً للجدل طول حياته، وحتى أيامه الأخيرة لم يتخل عن إثارة الأفكار حول طبيعة الإنسان، بما فيها من تعقيدات وتعددية. أتذكر مرات أخبرني فيها أن كل ما يمتكله فرد، يمتلكه العالم، وأن أكثر الناس هدوءاً لا يخلو من جنون، وأكثر الناس حماقة لا ينقصه الحكمة. كان زوج أمي

لا يؤمن بالصفات الثابتة على الدوام بقدر إيمانه بالصفات العارضة. البشر ليسوا طيبين ولا أشراراً، هم مزيج من كل شيء، ويجب تقبّلهم على ما هم عليه، لكن بحيطة، كان يقول. من أجل ذلك لم يدع سره لأحد ولم أعرف له صديقاً. كان، على ما أتذكر، مشغولاً بفهم الإنسان، وكان هذا سؤاله الكبير، لم يكن الماورائي يشغله، ولا أتذكر أني سمعته يوماً يتكلم عن إله، ولا عن الغد. دائماً كانت حياته تتمحور حول هنا والآن، ألهذا تمتع بقدر كافٍ من الصحة والسعادة والوسامة؟

ماذا بك يا نحات؟ أراك اليوم شارداً؟ تسأل عروسة النهر. معذرة يا عروستي، استحضرتُ ذكريات قديمة فحسب، أجيب. كم أود أن أعرف ذكرياتك كلها، ليس فقط لأنك حبيبي، بل أيضاً لأنك الوحيد في هذه الجزيرة الذي تمتلك تاريخاً، تقول بفضول. يوماً ما سنعرف كل شيء، فأنا مثلك أبحث عن الحلقات الناقصة لتكتمل الرؤية، أقول. وذكرياتك، ألن تحكي لي شيئاً منها؟ تقترب مني بفضول أكبر. ستشاهدين كل شيء بعينيكِ، ومعاً سنكتشف ما خفى، أقول وأنا أربت عل ظهرها. أتعرف يا نحات، أنت تخيفني وتجذبني في نفس الوقت، أنت المحتجب الغامض الذي أحبه ولا أعرف عنه شيئاً، تقول وتستريح على صدري. الغموض فضيلة يا عروسة النهر، فما أن نفك شفرة الشيء حتى نكتشف عاديته ونألفه، حتى في الحب يحدث نفس الشيء.

ترفع رأسها وتنظر إليّ بقلق، تطرح بعينيها سؤالاً أفهمه ولا أود الجواب عنه، كما تفهم هي أسئلة أخرى وتتجنب تقديم أجوبتها. الأسئلة المعلقة

دافعاً لاستكمال الطريق، أقول لنفسي. لا أريد أن أقدّم جواباً بسهولة، كل سهل مبتذل، وربما يكون غير مقنع. هل ساءها أني لا أحكي تاريخي؟ أم أني شبّهتُ الحب بالأمر العادي ما أن تُفك شفرته؟ في كلتا الحالتين، ليس من الحكمة تقديم تأويل، فما من برهان أكثر إقناعاً من الفعل. يا نحات، نحن هنا، تأخذني من شرودي. أنتِ هنا وهناك يا عروستي. أفرد جسدي وأسند رأسي على فخذها، تصافحني نسمة مارة بينما تداعب شعري، تطاردني رغبة أن أعجنها من جديد، أن تسير أصابعي بين سهولها وتعتلي نتوءاتها. تميل وتعطيني قبلة، فأتلقاها كعطِش يتلقى قطرة ماء. ترفع يدها بدعوة، أمسك يدها وخيالي يستحضر داخلها، بدفئه وترحيبه. أحملها بين ذراعيّ وأتجه صوب المسكن، أضعها على السرير المنخفض وأبتهل. أتضرع وأنا أقبّلها. أمارس صلواتي في محراب جسدها. تعلو روحي فيملؤني الخشوع. في حضرتك أغيب عن الوعي، أقول. مع قبلاتك أؤدي شعائري، تقول. أرتجف وترتجف. أستريح على ظهري وتستريح على صدري، أفيق وتفيق، ونعود سوياً إلى الأرض. ولمّا تنهض لترتدي ثيابها، ألمح انتفاخ بطنها. ما هذا يا عروستي؟ أسأل مرتاباً. لا أدري، منذ يومين ظهرت أعراض غريبة، ورم في البطن وشعور بالإعياء، ونفسي تهفو لثمرة التين، ورغبة في النوم أقاومها، تجيب. أراها أعراض حمل، أؤكد. تتلقى الخبر بفرح وتنقض عليّ لتعانقني، وأنا ساهم، شاخص. ماذا بك يا نحات؟ تسأل مضطربة. لا شيء، لا شيء. أكاد أسألها إن كانت ضاجعت رجل القضيب أم لا؟ أيكون جنينها من صلبي أم من صلب آخر؟ لن أسألها أبداً، السؤال مهانة لي واحتقاراً لها. تقترب مني وتقبّلني

وأنا مهموم. سيكون جميلاً مثلك يا نحات، تقول بنظرة حائرة، فأربت على كتفها في حنان حتى لا تلاحظ حيرتي.

أرتدي ثيابي وأخرج من المسكن، تتبعني وتلحق بي. صمتك يحمل أسئلة يا نحات، تقول. وأنتِ، ألا تحملين سؤالاً؟ أقول بسرعة. أنا قلقة جداً، كيف سيظهر ابني في الجزيرة دون أب؟ كيف يمكنهم أن يروا من لا يُرى؟ وكيف سأفسر لهم ذلك؟ والحل في نظركِ أن يكون أباه مرئياً، أليس كذلك؟ أسأل بغضب. أنا أفكر بصوت مسموع وأحتاج مشورتك، ترد بغضب مماثل. أفكر أنه لا مفر من سؤالٍ يحيرني. أنظر إليها متهماً، دون أن أنطق. فيما تفكر يا نحات؟ أواصل النظر، في صمت. نواصل السير. وتمر دقائق ونحن نتجول في الجزيرة، دون كلمة. لن أفعل شيئاً، قالت، ثم صمتت. سأتحمل وحدي هذا العبء، وسأواجه أهل الجزيرة بطريقتي، واصلت حديثها. أشعر باستفزاز، أزمتك أنك تبحثين عن أب مرئي لابنك، بينما سؤالي من هو أبو ابنك في الحقيقة! أقول لأول مرة بعنف لم تشهده مني من قبل. تتركني بلا إجابة، وتعود للمسكن. بينما أقرر أن أبات الليلة في كوخي.

أصل منهكاً، ويلازمني الأرق. أستحضر، دون إرادةً مني، صورة رفيقتي في الحياة الأولى، وتتوالى الذكريات. كيف غابت عني كل هذه التفاصيل! كيف تصبح الذاكرة انتقائية لهذا الحد! أنا لست خارج اللعبة إذن، بل أنا، وبشكل لا يمكن تجنبه، أحد اللاعبين الأساسيين فيها.

العالم يتشكّل ويكتمل، غير أن الحقائق لا تزال غائبة. أستسلم للنعاس.

في اليوم الأول بعد الأيام الست الثانية وبحسب ورقة مهترئة شديدة الوهن استراح النحات ونام فلم يحط علماً بما حدث في الجزيرة ولم يخبره أي من الفانين أن رجل القضيب قد لاحظ انتفاخ بطن عروسة النهر وأنه أشاع في الجزيرة دون أن يخبرها بشيء أنها امرأته وأنها تحمل في بطنها بزرته. ولم يكن أمام البؤساء الذين لا يملكون من أمرهم شيئاً إلا أن صدّقوه ولِمَ لا فما من دليل على الأبوة مثل اعتراف الأب وما من أحد أكثر صدقاً من رجل يعلّم الخير وينبئ بالغيب ويحمي من الغد الغادر.

لكنني والحق أبغي لستُ أدري عن يقين إن كان الطفل القادم ابناً للنحات أم لرجل القضيب فالأقوال تكاثرت وتناقضت وتضادت والحقيقة ضاعت بين اختلاف الآراء والرؤى وأنا هنا لست فقط ناقلاً للحكايات بل أيضاً معلقاً عليها ومتشككاً في بعضها دون أن أستبعد ورقةً أو أنتصر لفريق من أجل ذلك سأعرض في صفحات متقدمة بقية الأوراق لنهايتها ليعرف القارئ بقية الحوادث وليعتقد في آخر المطاف فيما أراد غير أنني الآن تحديداً سأسرد ما يخص يوماً بعينه.

سجّلتْ بعض الأوراق المنثورة والمجهولة والتي جمعتُها بشق الأنفس أحداثاً جرت في هذا اليوم السابع. الورقة الأولى تحكي أن رجل البرميل ظل يبحث عن النحات دون أن يعثر عليه فراح للمنخفض وتجول فيه دون جدوى حتى الصنيعات لم يجدها كأن شيئاً لم يكن يوماً فركض في الجزيرة من شرقها لغربها ومن شمالها لجنوبها منادياً بصوت أم ثكلى أيها الموجود لمَ تحتجب؟ إن كنت موجوداً تجلّى. غير أن أحداً لم يتجلَ ولم يتلق إلا صوت صداه ثم ما لبث أن أرهف السمع فأنصت لتغريد الطيور وصهيل الجياد وعواء الكلاب. أتكون أنت متجلياً في أصوات صنيعاتك؟ سأل وكرر السؤال ومن كثرة التكرار رق قلب بائعة اليانصيب فقالت له هوّن عليك وعانقته بيد أن كثرة الارهاق أفقدته الوعي ولما استعاده وكأنه رأى في الاغماء أمراً خارقاً صعد إلى التبّة وواجه رجل القضيب المحاط بمريديه وقال له: أنت محتال أيها السيد فما من أصوات تسمع وما من نصوص تملك وما من غيبيات تطلع عليها.

قال البعض إن رجل البرميل كان كما المجنون بينما قال البعض الآخر إنه كان مثل الضعيف الذي يدافع عن حق بلا برهان بينما صمت البعض وتأمل فمنهم من صدّق ومنهم من كذّب فما كان من رجل القضيب إلا أن أطلعه على نصوصه وسأله إن كانت كلماته تضر الناس أم تنفعهم وهل تدعو إلى الخير أم دون

ذلك فكان رد رجل البرميل أن قال إن الصوت قد جاءه ذات ليلة وأخبره بما يعتقده الحقيقة وأعلمه أنه لو أراد أن يكلم أهل الجزيرة لكلمهم لكنه اختار أن يختاروا بأنفسهم طرقهم وأن يتحملوا وحدهم ثمن أخطائهم فنظر إليه رجل القضيب وسأله: وما أدراني أن هناك صوتاً قد جاءك؟ وما أدراك أن الصوت الذي جاءك هو نفس الصوت الذي جاءني؟ ثم سأله في تحد: ماذا تريد في الحقيقة؟ ان كنت تريد جاهاً جعلتك من مقربيني فصرت صاحباً أعلّمه وأُطلعه على أسراري وان كنت تريد مُلكاً ملّكتك أرضاً وجعلتك سيدها وإن اخترت أن تكون من أضدادي فليس لي عليك من سلطان.

يقال إن رجل البرميل رد عليه بتحد أكبر: لا أريد سوى الحقيقة. فسار رجل القضيب عدة خطوات ثم قال: أنا أمتلكها لو راق لك اتبعني. وإن لم يرق لي؟ سأل رجل البرميل وقبل أن يتلقى الجواب انتهى به الأمر ملقياً من فوق التبّة بآثار أصابع المريدين على محياه وجسده وبصرخات بائعة اليانصيب تحيط به.

في ورقة أخرى ليست أقل اصفراراً من الأولى روى الكاتب المقنّع عن المطربة التي صارت لا تكف عن أكل ثمرات التين بشراهة وعن بطنها المنتفخة التي تحوي جنيناً مكتملاً وعن زوجها

صانع الفخار الذي صار نحاتاً يصنع من الخشب أشكالاً حيوانية وبعجن الطين يُخلّق صوراً إنسانية.

تُفصّل الورقة أن أتباع رجل القضيب لمّا رأوا مهارة الرجل وبراعته طلبوا منه برفعة معتادة أن يصنع لوليهم تمثالاً ويقيمه في وسط الجزيرة(دون أن توضّح الورقة هل حدث ذلك بمعرفة الرجل وبطلب منه أم كان محض معروف تبرعوا به من تلقاء أنفسهم لينالوا رضاه) فسعرت المغنية بذلك وترجت زوجها المتردد أن يفعل فبدأ في نحت حجر من الجير ووُعِد في مقابل ذلك بمكانة وحظوة ولقباً ومحاباة فصار نحات الجزيرة فنانها العظيم وصارت عائلته من المقربين.

الورقة الثالثة كانت شبه ممزقة واختفت منها أسطر لم يمكنني تخمين محتواها غير أن ما فهمته منها أن رجل المسرح اختار عدداً من الرجال والنساء وأعطى لهم أدواراً في مسرحية يحضّر لعرضها ورغم عدم إطلاعي على نص العرض ولا موجزه إلا أنني أدركتُ أنه قد كوّنَ مجموعة من الناس أظنها لن تخضع لسلطان وقد تؤرق جانب رجل القضيب وآخرين.

الورقة الرابعة تحكي عن رجل البرميل وتروي أن بعض من رأى هزيمته وشاهد سقوطه المدوي قد تعاطف معه وأن

رفيقته تجولت في الجزيرة وأذاعت ما فعله رجل القضيب لرفيقها فكسبت بذلك مؤيدين إضافيين حد أن رجل المسرح الذي لا يعتني بأحد زاره وشد منْ أزره وقبّله بحنو لم يعتده مع الغرباء. الغريب كذلك أن بائعة اليانصيب رغم عدم اقتناعها المطلق بما قصه عليها رفيقها من أحاديثه مع صوت خفي إلا أنها عضدت أقواله ووزارته وأقسمتْ على صدقه أمام الجماعاتَ والأفراد.

الورقة الخامسة كانت أغرب الورقات التي عثرتُ عليها حد أنني تشككتُ في نية كاتبها ولم أعرف صدقها من زيفها إلا مع تقدم الحكاية وكشف المضبب فيها والرمادي.

تحكي هذه الورقة عن عروسة النهر غير أن الغرابة لا تكمن هنا بل فيما حكته عنها. في هذا اليوم صحت عروسة النهر مغتمة وظلت تجول في الجزيرة كطفلة تائهة لتبحث عن حبيب لا يمكن أن يراه سواها. كيف يصير الموجود عدماً؟ وكيف يتوقف الزمن عند لحظة بعينها فيأتي بها من جميع زواياها؟ تساءلت بصوت مسموع دون أن يدرك أحد مقصودها أو يمتلك جواباً لحيرتها فواصلت سيرها غير أنها لم تستطع الوصول للكوخ ولا معرفة أين يختبيء منها صانعها. ولمّا مالت الشمس ولا تزال في دخولها وخروجها من شوارع متاهتها وأزقتها قابلت

رجل القضيب وانتبه لانتفاخ بطنها فربت عليها وداعبها برقة وأنزل على أذنيها كلمات العشق والوله فصمتت وسعدت وشعرت أنه المرسى بعد تلاطم الأمواج والدفء بعد برد الخوف والغربة فسارت معه وأكلت من ذبيحته ولمّا تعبت نامت في فراشه فخرج حينها وأخبر أهل الجزيرة أن امرأته حملت وأن بذرته تتكوّن في رحمها الآن فابتهج منهم من ابتهج واغتم منهم من اغتم وأقام أتباعه حفلاً أكل فيه الحضور وشربوا ورقصوا وغنوا ولمّا دخل الليل وسطع القمر وأنار الجزيرة نهضتْ عروسة النهر وهبطت من التبّة فاستقبلوها بترحاب وسرور وهنأوها بالخبر السعيد فلمّا سألت عنه أجابوها فتفكّرت لحظة ثم ابتسمتْ.

هذه الورقة تحديداً تفرض أسئلةً لا يمكنني التوصل لجوابها وتزيد حيرتي. كيف يقبل الرجل ذو القضيب بجبروته وكبريائه أن يتزوج امرأة حبلى من آخر؟ أم أنها حبلى منه؟ وكيف ذلك إن كانت النصوص السابقة التي كتبها النحات تشير لعلاقة عشقه مع عروسة النهر حتى وإن تشكك في أبوته ذات مرة؟ وكيف تبتسم عروسة النهر؟ وماذا تحمل ابتسامتها من دلالات؟

لا شك أننا في حاجة لمواصلة قراءة الحكاية كاملةً ليتبين لنا المستتر ولنكتشف المحتجب وربما مع كلمة الختام نكون قد

كوّننا تصوراً عما حدث. أقول ذلك وما من يقين أمتلك ولا حقيقة أستحوذ ولا إيمان عندي بقضية الاقناع وصب خلاصات الحكمة في الآذان فأمثالي يقدمون الحكايات بتعددها وتناقضها، وكلما تعددت اكتملت الصورة. وهنا يكمن سحر الحكاية.

أود أن أشير قبل أن أواصل أن النحات لم يدرك أنه نام اليوم السابع بأكمله وأنه لما استيقظ كان صباح اليوم الثامن.. لذلك بدأ سفراً جديداً ينقصه اليوم الأول.

السفر الثالث

اليوم الأول

أصحو بجسد مدغدغ، كأنني كنت أركض بلا توقف في ساعات نومي. أحلامي المتضاربة والملتبسة أرهقتني، حد أنني أسترجع الآن صوراً متعاقبة بجنون لحياة مليئة بالتفاصيل. رأيت أن السماء كانت طابقة على الأرض، وأن الشمس والقمر والنجوم كانت جزءها المنير، الموزع بدقة على جنباتها. رأيتني، في لحظة ما، أسير كأنني فوق السحابِ والقمرُ يحيط بي، ورأيتني، في لحظة أخرى، جالساً فوق البحر أنحت تماثيلي.

في مشهد آخر من الحلم، كانت الكائنات تسير فوق الماء، تجلس وتأكل، تبيع وتشتري، وتنام، فوق قطرات متراصة ومتماسكة. أثناء ذلك كانت البيوت تتكوّن وتتنامى، والحيوانات الضارية ترافق الأطفال، والرجال والنساء، دون أن ينظر أحدهم إلى الآخر، يمارسون الجنس في شغف في العراء. لم أنتبه في أي لحظة تغير الحال، ونبذ البحر مخلوقاته إلى اليابسة، ودون أن يدرك بعضهم ما جرى، اقتربوا من الماء وظنوه مسكنهم، فسقطوا فيه، ثم طافوا على سطحه غرقى، مثل دجاجات نافقة. متى تحوّل البحر إلى لعنة تصيب بالموت؟ وكيف حدث ذلك؟ لا أدري، غير أنني لاحظتُ في مشاهد أخرى عابرة، بعض البشر يركبون البحر

ويتجولون فيه بمراكب مختلف أحجامها، كما رأيت بعضهم يسبح في الماء كفراشة. رأيتُ، وأنا راقد وحدى في شارع طويل، انفصال السماء عن الأرض، وصعود الشمس والقمر والنجوم، وحينها ظلت الخيوط ممتدة من أسفل إلى أعلى، وفكّرتُ في أن أتسلقها لأمكث هناك، إلا أن ذلك بدا مستحيلاً. ما الاستحالة في ذلك؟ لا أدري، فالخيوط كانت قوية ومشدودة، لذلك أعتقد أنني فضّلتُ البقاء هنا، وأدركتُ بعد ذلك كم كنتُ محقاً، فبهذه الطريقة اكتشفتُ ما لم أكن لأكتشفه في علاي. حدث فجأة أن رأيت المرايا داخل البيوت، والشوارع المرصوفة، والسيارات الطائشة، والقطارات المزعجة. ورأيتني تائهاً بين البشر، الذين ظننتهم في البداية كثيرين، ثم ما لبثت أن انتبهتُ أنهم مجموعات، وأن الاختلافات بينهم رغم كثرتها ليست بجسيمة. انتبهتُ، في غمرة تيهتي، إلى أن الإنسان عندما صنع الشوارع والبيوت، وشكّل المدينة بهذه الهيئة، صنع المتاهة والعزلة، وأن الشوارع المكتظة بالمنازل المتراصة ليست إلا سجوناً سيتحتم عليهم الحياة بداخلها أو الموت بداخلها.

في المنام بأحلامه المتقاطعة، رأيتُ عروسة النهر ورجل القضيب وبائعة اليانصيب ورجل البرميل وزوج أمي وأبي وأمي، أحجاراً منحوتة، يلتفت إليها المارة وينظرون بوجل، كل إلى التمثال الذي يروق له. المارة، بخطواتهم المتقاطعة، لا يروون الحكايات التي أعرفها بقدر ما يحرفون في الحكاية كلما انتقلت من فم إلى فم. ولأسباب لم أكن أعرفها، كانت ذكرى زوج أمي عطرة، وذكرى رجل البرميل ملتبسة، بينما أشاروا لرجل

القضيب بسوء وأراد أحدهم تكسير منحوتته. أتذكر الآن أنني كنت حائراً وأنا أتساءل من صنع هذه التماثيل، وهل هي صنيعاتي.

أنهض من مكاني وأنا لا زلتُ في عالم حلمي. أرى شقشقة الصبح عبر نافذة مواربة، وأفتح باب الكوخ بيد ثقيلة. أرتجف من النسمات الأولى، وأتقدم بخطى بطيئة لأشاهد الندى فوق النبات. كم ساعة نمتُ؟ وماذا حدث في غيابي؟ مَن بحث عني؟ ومَن شاهدني نائماً؟ ماذا فعلتْ عروسة النهر في تلك الساعات؟

أشعر بالجوع، فأقطف ثمرة تفاح، وبينما أقضمها أشعر باشتياق لمنحوتاتي، رغم أنها لم تفارقني حتى في منامي. أنا وحيد من جديد، لا أحد أراه، لا أحد يسمعني. لكن ذلك لا يؤلمني، ولا يمنحني مرارة. أنا أصف حالي فحسب. لماذا أبرر ذلك لنفسي؟ للا شيء، أتساءل وأجيبني. وأثناء سيري وتأملي، وتنفسي ملء رئتي، ألمح تمثالاً من بعيد، مقاماً فوق قاعدة عالية. أقترب وأدقق النظر، يرتدي ثياب أهل الحكمة، بلحية طويلة وشعر مسترسل، وينظر لأعلى، نحو السماء، مبتهلاً. أحدّق. إنه رجل القضيب! مَن صنع له هذا التمثال؟ ولِمَ؟ وعلى بعد أمتار، بقايا حفل مقام.

أجلس على الأرض وأنا أفكر، التمثال الحجري لا يمكن نحته خلال ساعات قليلة. وأتساءل، أأكون قد نمتُ ساعات أكثر؟ أم أن خللاً حدث في حركة الزمن من ورائي. هل أنا داخل الزمن نفسه؟ أم بانتقالي إلى هنا خرجت من هذه الدائرة؟

أعتقد أن أبي مَن قام بالنحت، فما من نحات غيره في الجزيرة، لكني لا أعلم كيف انتقل من صنع الخزف إلى النحت وبهذه المهارة. فالتمثال، بنظرة علمية، منحوتة فنية، يُلاحظ ذلك في الرقبة وانثناءة الركبة والتجاعيد القليلة حول الأنف. بالإضافة لذلك، استطاع نحاته أن يعكس روح الموديل على هيئته، فلم يكتف برسم الجسد بل اختار له ثياباً تلائمه، ووقفة تمثّل تكبره، ونظرة تلخّص شخصيته. أرقد في مكاني في محاولة لاستيعاب ما حدث، لم يكن أبي من مريدي رجل القضيب، أيكون السر عند عروسة النهر؟ على أي حال هي الوحيدة التي يمكنها أن تطلعني على ما جرى. لكني غاضب منها، وهي غاضبة مني.

أتجه للمسكن، وفي طريقي ألمح بيوتاً جديدة شُيّدت، وأشجاراً نمت، وفي الجزيرة انتشرت الخضرة. لا أرى أحداً. لابد أنهم لا زالوا نائمين، أفكر. أقترب من باب المسكن فأراه موصداً، أدفعه فأجده خالياً، خاوياً، حزيناً ووحيداً. عروسة النهر من جديد، غبتُ عنها فغابت، أقول. دلفتُ وجلستُ فوق سريرنا. استحضرتُ رائحتها التي بالفعل تعبّق المكان، بنفس الدرجة التي تعبّق بها روحي. كيف ينفصل عنّا جزء منّا ويبقى رغم غيابنا؟ وكيف يصير لكل جسد رائحته كبصمة لا تزول ولا تتبدل؟ أمد يدي وأطلّع على خبيئتها، تثير أوراقها المنسقة فضولي وأود لو ألتهمها. أقرأ:

üqƓĦ Džǁ DžNjq ǀ ǁǫƓŧ !ƐNjƺǕƐ Džǁ ƒǓǕǁƐ ǀ ƑƟǅǁƐ ƑNJǓǁ ǓǅƩǂƓ¼
ƅƑDžƨǁƐ DžǁNj ƑNJƬƏƑƾǅ Ǔƻǂqŧ Džǁ DžNjq ǀ ƻǂqǁƐ qƑƨƜǕƐ DžǁNj ƭ þǕƐ

[illegible]

ماذا حدث بالتحديد لتقرأ عروسة النهر الجزيرة بهذه الطريقة؟ وهل كانت ساعات نومي طويلة لهذه الدرجة! أنهض من مكاني وأطل من النافذة على الخارج، أتساءل إن كنت أشعر بالندم لصنع صنيعاتي أم أن التجربة وسيلة وحيدة للتعلم؟ لا بأس، فلأكن واقعياً: ماذا كنت أنتظر؟ على أية حال، كتابة عروسة النهر محض تصور، قد يصيب وقد يخطيء. أعبث بأوراق أخرى تحت السرير، ألمح أوراقاً متناثرة بلا ترتيب بينها ولا

ترقيم، وبخط غير منمق وسطور مشطوب عليها. أحاول أن أقرأ إحداها:

[illegible]

[illegible]

إن كنت في حاجة شديدة لفهم صنيعاتي، فأنا في حاجة أكبر لفهم عروسة النهر، أقول وأنا أضع الورقة بجانبي، مسترجعاً كل حياتي معها منذ ظهرتْ. هي محقة وصادقة فيما تقول، فكيف كانت ستسير حياتنا معاً لو صارت محض امرأة تنتظر عودة رفيقها؟ أي حياة رتيبة كنا سنعيشها لو أطاعتني فيما أحب وأكره! لكن، أيعني ذلك أن الابن الذي تحمله في رحمها ابني؟ أم أنها ضعفت ذات مرة أمام وسامة رجل القضيب ورجولته، ومهابةً من سلطته استجابتْ لغرامه؟

أسحب ورقةً أخرى، ما شطبته فيها أكثر مما سمحتْ برؤيته، حد أن القراءة أشد صعوبة من الورقة الفائتة:

[illegible]

أترك الأوراق في مكانها وأخرج وأنا أجر خيبة الأمل. أراقب السماء التي صارت واضحة وأقل تجهماً. أفكّر فيما فكّرتْ فيه عروسة النهر، إن كانت ترتاب أحياناً في وجودي فلا جرم على الآخرين، أقول هامساً. أسير وأنا أحاول تفكيك علاقتي بها لأجزاء يمكنني من خلالها إدراك قلقها، أو ريبها. امرأة تُرافق رجلاً لا يراه أحد سواها، تعيش، أمام أهل الجزيرة، عزباء، يلاحقها الرجال لجمالها، ثم تظهر لهم فجأة ببطن منتفخة ثم بولد ترضعه وتحمله على كتفها، حسناً، مَنْ أبو الطفل إذن؟ وكيف تواجه العالم بطفل بلا أب؟ من ناحية أخرى، كيف لا أرى قلقها مشروعاً فيما يخص وجودي وعدمي؟ أنا الظاهر المحتجب ليس من حقي أن أفرض عليها الإيمان بوجودي حين لا يراني سواها. خطيئتي أن أحداً لا يراني من أهل الجزيرة، والعدل ألا يدفع الآخرون ثمن هذه الخطيئة.

تظهر من بعيد بائعة اليانصيب. ترعى بقطيع من الغنم، يأكل حشائش الأرض برؤوس محنية. تسير بخطى بطيئة ومتأملة، تراقب الجزيرة بعينين غائرتين. فيما تفكّر هذه المرأة في هذه الساعة؟ تمد يدها لشجرات الجوافة، تقطف ثمرات دانية، تفركها بيدها لتجففها من الندى وتضعها في سلة. أحدّق في نظراتها، تائهة مثل خطاها. تحدث نفسها بلا توقف، بصوت مسموع بالكاد، وتنسال عباراتها دون أن أتمكن من الإمساك بها. لسانها الطويل المتدلي على شفتها السفلية يعلو ويهبط، فأقترب منها أكثر وأنصت إليها، تهرب إلى سمعي كلمات تبدو لي موجهة لرفيقها، رجل البرميل. أظنها كلمات لوم وعتاب، بنبرة زاجرة. تدمع عيناها فجأة، يشرد قطيع الغنم فتنسى مآسيها وتهرول كي تجمعه من جديد. ماذا حدث؟

أتساءل وأقرر أن أتوجه للكهف لأرى بعينيّ.

أحدس حركة غريبة في الجزيرة وأدقق النظر. على مسافة مني أرى عدداً من الرجال والنساء يسيرون معاً أو تتقاطع خطواتهم. بعضهم يحمل شبكات صيد ويتجه نحو النهر، وبعضهم يحمل فأساً ويحرث الأرض، بينما صنيعاتي الأولى لا تزال في غياهب المنام، أفكّر. عند مدخل الكهف أرى أفراداً، يدخلون ويخرجون. أقف بالقرب منهم لأراقبهم، يتحدثون عما أصاب الرجل الملموس من ضرر. الآن أفهم، رجل البرميل واجه رجل القضيب. في الكهف، بعد أن يصير خالياً إلا منه، أرى الرجل مسجى على الأرض بكسور في جسده. وبشكل عبثي أفكّر: كيف سيستطيع قضاء حاجته؟ أي ذلٍ يشعر به! أنتبه وأنا أتوجع له أنني منذ جئت إلى هنا لم أقض حاجتي، ولا أشعر بالحاجة لذلك، وأنتبه أيضاً أنني لم أر محلاً لقضاء الحاجة في أي ركن في الجزيرة. ببعض التركيز، أدرك أن طريقة الإخراج هي العرق، وأبتسم للفكرة، هي أكثر نظافة وراحة، أقول لنفسي.

أخرج من الكهف على أطراف أصابعي، بينما ينظر رجل البرميل ناحيتي كأنه يراني، دون أن ينطق. أتجاهله، من الأفضل ألا أحدثه مجدداً، لا طائل من وراء ذلك، أفكّر. يجب أن يختار كل منهم مصيره بمحض إرداته، وأن يبحث عن سعادته بنفسه. أكرر هذه العبارة كثيراً، لكنها وسيلتي للدفاع عن إرادتهم ضد رغبتي في التدخل في مصائرهم. ألمح، وأنا في العراء، بائعة اليانصيب من بعيد، عائدة بسلتها وغنمها، تبدو منهكة، فأبتسم لها، وأفكّر في أنني معجب بهذه المرأة. أثناء ذلك، أواصل سيري لأقترب من

وسط الجزيرة. أتأمل من جديد تمثال رجل القضيب، وأسمع فجأة صوت صرخات متتالية. أنظر حولي لأرى عدداً من الصنيعات يركض نحو بيت أبي وأمي، أنتفض وأتبعهم على مهل. يقف الرجال بالخارج بينما تدخل بعض النسوة. أعبر الباب وأقف بمواجهة أمي بساقيها المنفرجتين، أتوجع وهي تصرخ وتطلق طلقات الولادة، وفي لحظة واحدة ألمح المولّدة، عروسة النهر. بعد عدة دقائق من الصراع، وكما حكى لي زوجِ أمي ذات مرة، أدخلِ العالم بقدميّ لا برأسي. أنتفض وأنا أراني خارجاً من رحم أمي، مغلفاً بالدماء، بشعر أسود ناعم يستريح على جبهة صغيرة ووجه شديد الحُمرة، مثل بقية جسدي. لكنني لا أبكي مثل بقية المواليد، كأنني ادخرتُ دموعي لأوقات أخرى. وبعد دقائق معدودة، تمد عروسة النهر يدها في مهبل أمي وتُخرِج رأس مولود آخر، أخي التوأم، الذي لا يشبهني إلا قليلاً. تغسلني خالتي في الحوض، وتلفني في قماشة، بينما يقترب أبي ليتلقف أخي الباكي بشكل هيستيري ويغسله فيزداد بكاؤه. وبينما أتابع بتوتر، تمد عروسة النهر يدها في مهبل أمي من جديد وتُخرِج مولوداً ثالثاً، تتلقفه خالتي المسرعة، بدهشة تشبه كل الدهشات المرسومة على وجوه الحاضرين، وتغسله في الحوض بنفس الطريقة، كأنها تعيد تمثيل مشهد مكرر. تتابع أمي كل هذا بعين راضية، غير أن الإنهاك يقتلها فتبدو ذابلة جداً. أراني بعدها بجانبها وبجانبي أخواي. كم كنتُ صغيراً جداً وهشاً، بعينين مغمضتين مثل قطة حديثة الولادة، روحاً خرجت من عالم دائري لتدور في دائرة العالم، روحاً تائهة، وجسداً خامداً. فيما كنت أفكّر في الحقيقة في دقائقي الأولى في الحياة؟ أقترب مني وأنظر إليّ، أميل

وأقبّلني، وأميل على أخي الثاني الباكي وأقبّله، وأطيل النظر للثالث الذي يبدو أنه لم ينتبه لخروجه للعالم، فأتركه في سلام. أنتصب وأنا أتساءل: هل حقاً لم أخطيء في التعرّف على نفسي؟ هل ما أخبرني به زوج أمي حقيقة؟ أفتح برفق اللفة التي لفوني بها وأنظر، الوحمة في ساعدي الأيمن لا تزال موجودة، بل وتتسع كلما تقدمتُ في العمر، وطرفا حلمتي أذنيّ متحرران من صدغيّ على عكس أخي الباكي الملتحمة حلمته، والثالث المختلف عنا بأذنه الطويلة. أيكون التمثال الطيني الذي كان في غرفة أمي تمثالنا؟ كان منحوتة بجسد واحد وثلاثة رؤوس، اختفى يوم اختفت أمي، دون أن يخطر ببالي أن أسألها من هؤلاء الذين يمثّلهم التمثال. زوج أمي يقف عند الباب بسيمات الذهول على محياه، وأبي بالقرب من أمي من الناحية الأخرى كمن أدرك هول الكارثة، وأنا أراقب الحدث بالنظر حولي وألمح نظرة أبوة مكتسية بالفرحة تنتبه لها أمي فتنتظر هناك، صوب الباب. تسحب صدرها وتخرجه، فيتلاشى الجمع ويتبقى أبي بمفرده. تحملني بين ذراعيها وتضع حلمتها الطويلة والغامقة في فمي، دون أن أفهم ما يجب أن أفعله. أمصها ببراءة، وأرضع. أنظر إليّ وأبتسم، وعندما ينتفض أخي كثير البكاء أحمله بين يديّ، فتنظر إليه أمي مأخوذة، وتحمله مني بعد أن تضعني بجانبها بتردد. تضع حلمتها في فمه دون أن تراني، وتقول لأبي مرعوبة: أترى ما أرى؟ نعم يا حبيبتي، يجيبها، لكنني لا أفهم شيئاً. أثناء ذلك يدخل رجل القضيب، فيتبادل أبواي النظر ثم يحدقان فيه. أرنو إليه وأنا أفكر، هل ظنا أن معجزة ما حدثت وينسبانها لرجل القضيب؟ حيّاه أبي باضطراب، وقبّلتْ أمي يده بمحبة وهي لا تزال في دهشتها، ودنا هو

من أذني وأذن أخويّ بالتتابع، وقال كلمات أفزعتنا فانفجرنا في البكاء، فانتفض واستغرب، فعللت أمي، حرجاً، بأننا جائعان فحسب. ابتسم مدارياً غضبه، واقترب من أخي الباكي وقبّله في جبهته فكف عن البكاء. ثم خرج وأنا أراقب حالة الهلع التي أصابت أبي وأمي.

ألقي نظرة أخيرة على نفسي وأنا في دقائقي الأولى في العالم، ثم أنصرف. أخرج لأجلس وحيداً تحت شجرة توت، وأفكر فيما جرى للتو لأستوعبه. لم أكن أعلم أن لي أخاً ثالثاً، ما عرفتُ غير أخ واحد اختفى بعد اختفاء أمي بسنوات قليلة. كان توأمي، غير أننا كنا مختلفين وكثيري العراك، كان يريد أن يتبع العالم خطواته، وأنا كنت أكره أن أتبع خطوات أحد. ورغم خلافاتنا، حزنتُ كثيراً عندما فاجأني قبل رحيله بأيام بأنه يرانا متشابهين ويرى كل شيء متشابهاً معه، قال باللفظ إنه يرى وجهه في كل الوجوه. ثم اختفى. نفس العبارة التي قالتها أمي، وقالها أبي، قالها أخي التوأم دون أن أدري هل انتحر، مات، أم انتقل لمكان آخر. ولماذا لم أصنع له تمثالاً؟ ولماذا لم أحكِ حكايته؟ لا أعرف تحديداً، ربما رغبةً في اللاوعي ألا أخلّد ذكراه، وربما نسيته. لكنه على أية حال عاد بالطريق الطبيعي، مولوداً.

أفكّر في سنوات طويلة مضت وأتساءل، كيف نتحول من الطفولة للشباب ثم للشيخوخة؟ كيف تتحرّك هذه الدورة الزمنية؟ ولِما لا تسير بالعكس؟ أرفع رأسي وأرى أهل الجزيرة ملتفين حول رجل القضيب. نجم سقط من السماء فتلقفوه بلهفة. ألمح نظراته الزائغة للنسوة، وتوجهه

لإحداهن بنظرات غاوية، فاتنة، تستجيب لها المرأة وترافقه عند رحيله. أبحث بعينيّ عن عروسة النهر فلا أجدها. أنهض وأتجول في الجزيرة فأجد زوج أمي، مصادفةً، جالساً على الضفة، وحيداً، يرمي النهر بحجارات صغيرة، ويبدو حزيناً ورائقاً في نفس اللحظة. إذن، زوج أمي هو أبي الحقيقي، وتمنيه لحفيد لم يكن محض هراءات. حبه لي لم يكن حب العِشرة، بل رابطة الدم، ورعايته لي لم تكن إحساناً، بل تكفيراً عن ذنب مُقتَرَف. مقابل ذلك، ارتباطي به وأمنيتي أن أمارس مهنته كان مرتبطاً بجينات وراثية، عشق المسرح والممثلين والعوالم الموازية كنت أحمله في أوردتي. وارتداداً لأصل الخيط، أو طرفه، كانت صناعة التماثيل: الصنع أولاً ثم الحركة تتبعه. أبي أيضاً كان مثّالاً، وهنا أجد تشابهاً بينه وبين زوج أمي: كلاهما يصنع شخصيات، ويضع لها تفاصيلها، أبي يجتهد ليكون السكون معبراً عن الكيان، وزوج أمي يجتهد لتكون الحركة مناسبة للشخصية، ونظرات العين عنصر أساسي في عمل كل منهما. بالإضافة لذلك، كلاهما عشق نفس المرأة وضاجعها. الآن، من مكاني هذا، أراهما متكاملين، وجهين لعملة واحدة، نصفين مختلفين لنفس الرجل. وأنا في حيرة بينهما، الأول اختفى قبل أن أراه، والثاني فضّلني على أخي الأصغر مني بدقائق فخلق بيننا الشقاق.

ينهض زوج أمي فيقطع أفكاري وينبّهني. يحييه خمسة من المارة، رجالاً ونساءً في بدايات الشباب، فيقف ليتحدث معهم. يبدو من هيئتهم أنهم ممثلون، بشعر طويل مسترسل أو أشعث، وملامح عذبة، وإيماءات باليد مع غمزات بالعيون، ومرح في الحديث. يبتسم وهو يتبادل معهم

الكلمات، ويتفقون على موعد. ينصرفون في جماعة كما ظهروا، ويواصل هو سيره صوب خشبة المسرح المشيدة في وسط الجزيرة. أتردد ما بين أن أتبعه أو أن أدخل لأطل عليّ وأنا في بداية وصولي للعالم. أنتصر للرغبة الثانية، وأجدني نائماً بجوار توأم وأمي. نتشابه كثيراً رغم الاختلافات التي ظهرت بعد ذلك. كيف كانا عندما صارا شابين وناضجين؟ السرور المرسوم على وجه أمي يقابله اكفهرار على وجه أبي، وكلمات أمي البطيئة والمرتبة يقابلها صمت من جانبه. وأنا أنظر لكليهما بالتتابع، وأنظر لثلاث مخلوقات نائمة، يبتسم أحدهم لأنه يحلم بمخلوقات جميلة تداعبه، ويعقد الثاني حاجبيه لأنه يرى كابوساً، أما الثالث فلا يعطي رد فعل، كأنه جثة هامدة. تمنيتُ ولداً فجاء ثلاثة، أترى؟ تقول أمي موجهةً كلامها لأبي لتخرجه من صمته، فينظر إليها ويهز رأسه دون أن يبتسم. سيكونون أولادك يا رجل، حماية ظهرك، عكازك عندما تشيخ وتهرم، تقول أمي من جديد، بينما يواصل أبي النظر إليها في ريبة، وتقول عيناه ما يحاول كبحه، وما تتجاهله السيدة البريئة. يستأذنها في الخروج وينصرف، فتحزن أمي وتحاول مداراة حزنها بابتسامة تخرج صفراء، فأقترب منها وأقبّلها في جبينها، فتبتسم.

أين عروسة النهر؟ أتساءل وأنا أتجول تحت الشمس التي صارت حارقة بعض الشيء. لماذا تختبيء كلما احتجتُ إليها؟ أقول وأعلم أنني أكثر اختفاءً منها. أشتاق إليها رغم ما أحمله لها من غضب. أنتبه في سيري للدجاجات والديكة والخراف والنعاج، صارت ملكاً لهم، كل منهم يمسك بعدد من الحيوانات والطيور ويقول إنها له. لا بأس، سنة

الحياة، الكل يتملّك ويتبادلون العطايا فيما بينهم. كل يد تمتد لليد الأخرى فتتكامل الأيادي. أبي يسير وحيداً كأنه يبحث عن شيء مفقود، وخالتي تقابله في الطريق فتقطع خطاه. ثم يختفيان عن الأفق. أسير صوب التبّة وأرى بنايتها قد اتسعت ورحبت، وامتلأت بأتباع لرجل القضيب يجمعون حولهم أناساً ويحدثونهم في أمور دنياهم وما ينبغي أن يفعلوه ليسعدوا بها. أتقدّم خطوات للداخل، أسمع تأوهات امرأة من المتعة والألم، فأفتح الباب بفضول وأطل برأسي. رجل القضيب يضاجع بعنف المرأة الجميلة التي اصطحبته، يعنّفها ويزجرها بكلمات جنسية قبيحة تتزامن مع ضرباته لها وإيلاجه لداخلها، يطلق صرخات النشوة، فتعانق صرخاته تأوهاتها، ثم ينام على ظهره وينتبه للباب الموارب. يأمرها أن تغلق الباب، وتعود. تمر الدقائق ولا يزال عضوه منتصباً، تسأل المرأة بدهشة، كيف تصل للنشوة ويظل عضوك منتصباً؟ ينظر إليها، ينظر إلى عضوه، لا أعرف، يقول، هذه هي المرة الأولى التي يحدث ذلك. تبتسم له وتقترب إليه من جديد، هذا جيد، تقول، هذا رائع، سنواصل إذن. تعتليه المرأة هذه المرة، تتفوه بعبارات السعادة لقدرته على المواصلة، بينما لا يتوقف هو عن ضربها على وجهها بعنف، ثم يعتليها في أوضاع مختلفة. تُنهك المرأة وترقد بجانبه بعد فترة طويلة، بينما أتابع كل ذلك جالساً على الأرض بقرب الباب. ترتدي المرأة ثيابها وتخرج، وهو لا يزال بقضيب منتصب.

أخرج من الجزء الخاص به في نُزُله الرحب، وقلبي يدلني على أن عروسة النهر ترقد في مكان به. في الغرفة المطلة على الحديقة من جانبها الشرقي، أجدها، ببطنها المنتفخة، نائمة. أقبّل جبينها في صمت،

وأتحسس بطنها برقة، وأتساءل من جديد، ابن مَنْ هذا الساكن في رحمك يا عروستي. ابنك أنت يا نحات، تقول فتفاجئني، لو كان هذا السؤال يحيرك فها هي إجابتي، تختم عبارتها هكذا بعتاب. أود لو أصدقكِ، غير أنني لا أفهم معنى وجودك هنا، أقول بغيرة تقترب من العنف. أنا هنا لأنك غير موجود، هل سألت نفسك من قبل كيف سأظهر في الجزيرة بابن بلا زوج؟ هل فكرت كيف سيكون حالي حينها؟ سألت بعنف مماثل. لست في حاجة لطرح هذه الأسئلة لأنني على يقين من قدرتي على حمايتك، أقول. ومَنْ سيحمي ابني؟ مَنْ سيعطيه اسمه ليواجه به الحياة؟ تقول وتستوي في مجلسها. لهذا ستهبين ابني لأب آخر لمجرد أنني غير مرئي، يا للجور. أفعل ذلك من أجله، ومن أجل ألا يقولون عني إنني مجنونة. ولماذا اخترتِ رجل القضيب تحديداً؟ أواجهها بسؤال آخر ظل يحيرني. لأنه شبيهك يا نحات، ولأنه يعشقني، ولأنه سيفعل ذلك لأنه ضاجعني مئات المرات في خياله دون أن يعلم أن ذلك لم يحدث ولا مرة واحدة في الواقع. أتجاهل كل الهراء الذي تقوله وأتوقف عند الشبه، كيف يشبهني؟ ليس حقيقةً أنه يشبهني! بل يشبهك، تكرر، وتمد يدها إلى وجهي وتتحسسه، له نفس هذه العين، والأنف والفم، له نفس هذا الشعر والجبهة. أنتفض من مكاني وأتركها، أخرج مهرولاً. هذه المرأة أصابها الجنون. أرى في الحديقة عدداً من الرجال والنساء والصبية في انتظار الدخول، وأواصل هبوط التبة مسرعاً دون أن ألتفت حولى.

في أرض نائية، ربما لم يصل إليها أحد من أهل الجزيرة بعد، أجلس بمفردي كالعادة. لقد هربتُ من عروستي قبل أن أعرف ماذا حدث أثناء

نومي، بهذا ينقصني أهم ما حدث في غيابي. يقترب أبي وخالتي، يتبادلان الحديث، ثم يقفان. ينظر كل منهما في عين الآخر، مرددين كلمات لا تصل إليّ. يتبادلان القبلات، فأصعق، وأنهض. أريد أن أقترب لأسمع ما يدور بينهما. أحبك منذ رأيتك وحافظتُ على نفسي من أجلك، تهمس له. يا ليتني قابلتك قبل أي شيء، يقول، كيف نضل الطريق إلى الحب رغم مكوثه أمامنا، يسأل متحسراً. يعاودان القبلات، ويتلفت أبي حوله قبل أن يخلعها ثيابها. لا أحد هنا، يقول ويعانقها من جديد، فتقبّل رقبته بشغف، كمن تتعرف على رائحته. يواقعها ويرضع منها كطفل جائع، فتطلق تأوهاتها الأولى. ينزل إلى بطنها ويقبّل سرتها، ثم تستريح رأسه بين فخذيها ويلعقه، بينما تزداد آهاتها، وأنا في صعقتي. يريح ساقيها على كتفيه ويلجها ببطء، كمن يتحسس طريقه أو يخاف أن يجرح مكمنها. في لحظة واحدة، تطلق خالتي آهتها الكبرى، وتتبعها آهات أخرى بالتوازي مع خروجه ودخوله، ثم تأتي رجفتها وهو لا يزال مواصلاً، ثم تأتي رجفتها وتعقبها رجفته، فيستريحا. فأنصرف.

الشمس تشتد فوق رأسي، والحقائق التي أكتشفها تصيبني بالدوار. ما الحقيقة في حياتي الأولى! كيف كان كل شيء محض نتائج لم أعرف من قبل أسبابها! هل كنت عائشاً حقاً في تلك الحياة أم كنت مجرد عابر؟ خطواتي ثقيلة، ضالة، لا تعرف قِبلتها. خطوات صنيعاتي، في المقابل، أكثر رسوخاً، أكثر استجابة لمطالبها وإن تم ذلك في الخفاء. لا ألوم أحداً، أعاني من المفاجآت فحسب. لكنني، في نفس الوقت، لا أجد سبباً للحيوات السرية، لحمل كل منهم كل هذا الغموض. وماذا أريد؟

أتساءل. أنا ساذج، فالنفس الإنسانية معقدة أكثر مما ينبغي، إنهم عدد من الأرواح بداخل جسد واحد. أقترب من الضفة وأخلع ثيابي، أهبط إلى النهر وأسبح. ملمس الماء يعيدني لذكرى عروستي، كيف كانت محض طيف تحول إلى حقيقة، ثم ما لبثت الحقيقة أن صارت وهماً، سراباً يحسبه العطشان ماءً، ثم ذكرى. أرقد تحت الشمس لأتجفف، وأشعر بالجوع. تصطدم بقدمي إحدى الصنيعات وتقع على الأرض، تنظر نحوي دون أن تراني، فتهرول خوفاً من روح شريرة، وتتلفت المرأة وراءها حتى تقع من جديد وتنهض. وأنهض أنا أيضاً، أقطف ثمرات تفاح وأنا في طريقي لرجل البرميل، وأتناولها سائراً. أرى بائعة اليانصيب تذبح دجاجة وتقطف ريشها، تضعها في قدر بماء مغلي وتجلس بجوارها، بينما رجل البرميل يعمل بالنجارة، يصنع باباً ونوافذ. أنظر إليه سعيداً، فأنا أحب الصنع، هذا النوع من البناء. يرتبك لمّا أقترب منه، فأسير على أطراف أصابعي، وأنظر لجسده فأجده متعافياً تماماً. الرجال والنساء يمرون ويحيونه، وبعض النسوة تلتف حول رفيقته ويتبادلن الحديث. أجلس على مسافة منه وأراقبه، يعمل بمهارة، يقطع الخشب بمنشار بقوة، رغم أن جسده يبدو ضعيفاً، ويجيد صنع أشكال على اللوح، ومنه. فيما يفكر بينما يصنع أبواباً ونوافذ؟ هل نساني أم لا يزال مشغولاً بي؟

تميل الشمس وتخف شدتها، فأسير صوب الكوخ متأملاً حركة منحوتاتي، ومراقباً نمو النباتات والأشجار التي ملأت الجزيرة فحوّلتها لجنات. الأرض مقسّمة أولاً بحسب ملّاكها، ثم بحسب نوع الثمار. والمنحوتات تتجول بينها في سلام، يتحدثون، يضحكون، يبكون، يتبادل

الرجال والنساء النظرات، يأكلون سائرين. لا يمكن، من خلال سيرهم هذا، أن تميّز بين من ينحاز لرجل البرميل ومن ينصاع لرجل القضيب. المنحوتات تبحث عن سعادتها، وكأن الحزن المفروض عليهم يدفعهم نحو الطريق المخالف، الضفة الأخرى. أفاجأ بأنني سريعاً أمام كوخي، فأفتح بابه وأدخل. كل شيء مبعثر. لا تزال يداً تبحث عن أسراري. أمد يدي في مخبأ أوراقي فأجدها سليمة، وأجلس لأسجل ما حدث بالترتيب، بفعل مضارع، مستحضراً كل ذاكرتي حتى لا تهرب مني أصغر التفاصيل. أثناء ذلك ينتشر الظلام بالخارج، وتتراكم أوراقي، وتملؤني الشجون، غير أن الشعور المهيمن، رغم كل شيء، غبطةٌ بأني أدوّن التاريخ، وأكتشف العالم من جديد. أتمطع وأسمع طقطقة ظهري، وأنهض لأطل من نافذتي على الجزيرة، فألمح أنواراً. في المكان السري أضع أوراقي، وأخرج.

تبدو الجزيرة مقسّمة إلى ثلاثة أقسام؛ في المنتصف، حيث يقع كوخي في العمق، وتقع خشبة المسرح بمحاذاته تجاه النهر، وبالقرب منه التعريشة وبيت أبي وزوج أمي، تملأ الأنوار المكان، بينما الجانبان الآخران يقعان في الظلمة، أحدهما جانب رجل القضيب، والثاني لرجل البرميل. أواصل سيري لأرى العرض قائماً، الممثلون يؤدون أدوارهم والمشاهدون يندمجون في الحدث. وزوج أمي تحت الخشبة في الصف الأول يراقب بتركيز، ويوجّه بإيماءات غير ملفتة. مَنْ علّمهم هذا الانفعال، هذا التعبير بالوجه، والجري في خطوات محدودة، وخَلْق حالة لا وجود لها في الحقيقة. يشدني الممثلون بقوة، أنفعل مع بكاء بنت جميلة، وأبتسم مع مغازلة شاب لها، وأتأمل الحياة من خلالهم فأفهم قليلاً مما فاتني في

قدرات الإنسان. أنظر حولي، إلى المتفرجين، فأراهم يعيشون الحالة، بكل ما فيها من حزن وبكاء، وفرح وضحك. ينتهي العرض وينحني الممثلون أمام تصفيق الجمهور، وأنا أصفق بشدة. وأرحل. أتجول في الجزيرة من جديد. أبحث عن عروستي بأمل أن أراها في مسكننا، فأسمع صرخات مفاجئة، ويركض الناس. القمر يطل من فوقي محاقاً، وأنا أسير بحدسي صوب صرخات عروسة النهر. أدخل غرفتها فأراها بساقين منفرجتين، تطلق صرخاتها، بينما أمي تسحب مولودها. يغسله أحد مريدي رجل القضيب، وأنظر إليه لأراه، شبيهي يوم مولدي. تخرج أمي مهرولةً، فأتبعها. تدخل بيتاً أنيقاً، له حديقة واسعة، وفي الصالة يجلس أبي وحوله ثلاث مخلوقات جميلة، تلعب وتجري، تتقافز وتضحك، وتبكي أيضاً. وألمح، دون أن أدري كيف حدث ذلك، جدتي، جالسةً عند باب غرفة. أرتبك وأنا أتساءل، أأكون قد صنعتها دون أن أنتبه، أم أنها جاءت بمفردها. أراني أقترب من المرأة العجوز وأتقافز على حجرها، وألف يديّ حول رقبتها، وأدس رأسي بين صدرها، فتضحك وتضربني على مؤخرتي. التوأم، أثناء ذلك، يتبادلان الضرب، صاحب حلمة الأذن الملتحمة بالصدغ يضرب صاحب الأذن الكبيرة ويشده منها. أمي تتكلم وتعيد كلامها، وأبي ينظر إلى اللا شيء. ثم يقول فجأة، منذ عدة أيام وأنا أشعر بألم لا يعرفه أحد. تقترب منه أمي وتسأله، ماذا بك؟ ينظر إليها ويجيب، أرى الناس متشابهين، نسخاً مكررة، كلهم بلا استثناء يحملون وجهي، كأنني سقطت في بئر من المرايا، أيما التفتُ وجدتني. تعانقه المرأة برقة، فتهرب منه دمعة. أنت مرهَق فقط يا حبيبي، فلتسترح، تقول له. فتهرب دمعة من عيني. يتركها

خلفه ويتجه لغرفته، يتمدد على سرير، ويغيب عن صوت الأطفال الذين لا يكفون عن الضجيج. ويغيب عن نهنهات أمي وجدتي.

أنظر من نافذة الصالة التي تطل على الحديقة ومنها للجزيرة، فلا أرى أحداً. يأتي ابني يوم يغيب أبي، أقول في تعجب، وأقرر أن أنام هناك، فوق الكنبة التي اعتدتُ أن أنام فوقها في حياتي الأولى. أرى، في لحظة ما من الحلم، أن أبي يميل على رأسي ويقبّلني. أفتح عينيّ فأراه يقبّلني وأنا غارق في المنام، كأنه يترك بهذه القبلة محبته في قلبي إلى الأبد. ثم يحمل أخي ذي الأذن الطويلة معه، دون أن يقترب من ثالثنا. عند الباب، يلتفت للوراء، يودّع عالمنا بنظرة لا يمكن أبداً أن أنساها. ويرحل. في لحظة ما بعد خروجه، أشعر بهزة أرضية، فأسرع الخُطى لأرى في الشارع خطوطاً من الدم في اتجاهات مختلفة، وتظهر امرأة عجوز، في سن جدتي تقريباً، تشير بيدها في خط عرضي، فأرى مئات المقاصل المنصوبة، والرقاب المعلقة في أحبالها.

اليوم الثاني

أستيقظ في الصباح لأراني أقفز من الكنبة إلى الأرضية، بينما يثقب توأمي الحائط بأداة حادة لسبب غير معلوم. أستوي في مجلسي لأجدني جالساً على سجادة ملونة، أمسك بقلم وأرسم صورة لبيت مقسوم نصفين بسهم يأتي من أعلى، فيقترب أخي ويمزقها، ليقتسمها معي، فنتعارك، وتخرج أمي من غرفتها حزينة، تخبرنا أن أبينا قد رحل ولن يعود. ننظر إليها بلا مبالاة، ونواصل عراكنا. تفصل بيننا بيديها وتضرب أخي بعنف لا أراه مبرراً. فينزوي، وأقترب منه مقبّلاً جبينه. حينها أنظر إليّ وأبتسم، وأنظر لأمي، التي تجلس منهارة وباكية، تلطم خديها ليس لرحيل أبي فحسب، بل لغياب أخي الثالث الذي لاحظتْه للتو. أواسيها بقبلة غير مرئية. وتخرج جدتي وتعانقها بحنو.

أتأملني وأنا ألعب مع أخي من جديد، نتصنّع أننا كلبان ونتسابق على أربع، فيسبقني. وأخرج ضاحكاً. في شارع الجزيرة الرئيسي، أشاهد أسواراً شُيّدت في ساعات نومي. الجزيرة بالفعل صارت ثلاثة أجزاء، وأنا الآن في المنتصف، محاطاً بجدار حول أرض رجل القضيب من ناحية وأرض رجل البرميل من ناحية أخرى. مَنْ فعل هذا؟ أواصل سيري وأرى لكل سور بوابات وحراس. ولا يزال تمثال رجل القضيب في المنتصف

دون أن يمسه سوء. أتجه صوب المسكن، فأجد عروسة النهر جالسةً ترضع ابنها. أنظر إليها دون إلقاء التحية، وتنظر إليّ وتتجاهلني. ألاحظ حينها، وللمرة الأولى، أن عينيها زرقاوتان وليستا تفاحيتين كما كنت أراهما دائماً. أجلس في صمت، يراودني سؤال عن هجرها لبيت رجل القضيب، لن أطرحه أبداً. ماذا جاء بك يا نحات؟ سألتني بغتةً. أجيء كلما اشتقتُ للمكان، أجيب بصوت مكتوم. أم جئت لتقرأ أوراقي؟ تسأل مجدداً وتواصل، أعلم أنك اطلعت عليها، لا يهمني، فأنا في النهاية كتبتها لأجلك. نعم اطلعتُ عليها من قبل، ولم أقتنع بكل ما جاء فيها، غير أنني اليوم جئتُ لأنني أفتقد هذا المكان، وأشتاق لذكرياتي فيه. أنت تخليت عني يا نحات، لماذا تدعي أسباباً أخرى! تقول بائسة. لم يحدث، أنتِ اخترتِ لنفسك طريقاً آخر، وحياةً أخرى، وأنا لا ألوم، لكن ذكرياتي لي، وسأحتفظ بها بالطريقة التي تروقني. حسناً، كما يروق لك، وأنا سأتفرغ لابني وكتابة ما يشغلني، ولعملي بالطب، سأنزع الآلام من أجساد الناس، وأعلّم ابني أن يشفي المرضى. أنظر إليها بحب، لا أنكر أن هذه المرأة ملأت حياتي ولا تزال، أربت على كتفها، وأسند وجهها بيدي. أقبّل الطفل، وأنصرف.

أفكّر، بينما أعبر إلى الجزء الشرقي من الجزيرة، حيث مملكة رجل البرميل الجديدة، كيف أن الحب لا ينتهي، كأنه نبع لا ينضب، وكيف أن اللوعة واللهفة تباغتنا في الوقت الذي نظن فيه أننا هجرنا ضفة الآخر لنستقر في ضفاف أخرى. أفكر في أبي، فلا أعرف اليقين، إنه برهان لا يدحض على تقلب القلوب، ودليل جلي لحب التعدد. بينما زوج أمي

يقترب مني في اللهفة، هو نموذجي الأوضح لرجال عندما يعشقون لا ينالون النسيان ولو بعد حين، ومهما طال غيابهم يعودون ذات مساء بابتسامة صافية كأنهم يبدأون من جديد قصة حب قديمة. أرى أبي من بعيد، يسير منهكاً ويحمل على كتفه أخي. أقتفي أثره حتى يصل لمكان ناءٍ، فيضع حمله ويبدأ في جمع أحجار ويبدو أنه سيشيد بيتاً. أساعده دون أن يرى، ليمتلك في أقل من ساعة منزلاً أقل فخامة من منزله الذي هجره للتو. وبينما يستريح، يبكي الصغير جوعاً وعطشاً، ويضرب الأرض بقدميه فلا يخرج ماء من بئر مسحور، فأركض لشجرة تين قريبة وأقطف له ثمرة. أقدمها له، فيلتقطها، ويستوي أبي في مجلسه على وشك الجنون، ويحمل الطفل على حِجرِه كطفل مقدّس. يغوص أخي في النوم، وينهض الرجل الذي صار، فجأةً، شيخاً بشعر رمادي، ويفرش له فرشةً على الأرض لينام، ثم يخرج بعد أن يتأمل وداعة طفله. كيف صار العالم متشابهاً هكذا؟ يتساءل بتعجب. كيف أصبحت كل الوجوه مثل وجهي، ووجهي مثل كل الوجوه؟ أي لعنة تلك التي أصابتني؟ يقول متجولاً حول منزله، وأنا ألتزم الصمت.

لا يزال الصباح رائقاً، والشمس تطل من خلف السحابات بحياء امرأة عذراء. يصافحني النسيم وأنا في طريقي لكهف رجل البرميل، وأتخيل ما يصنعه في هذه الساعات المبكرة من اليوم. أقترب فأرى بائعة اليانصيب جالسةً فوق العشب، ملتفةً بنعاجها وخرافها، تتناول رغيفاً من الخبز بالجبن الأبيض. أسير بجوارها وأسمع أغانيها، تحتفي بالطبيعة كرسام. بالقرب من الكهف، أجد رجل البرميل جالساً في حلقة دائرية،

ملتفاً بعشرة رجال وبعض النسوة، يتحدث إليهم جميعاً بصوت الحكمة، ويحثهم على العمل وتشييد الجزيرة، وعدم اتباع الرجل المزيف. يؤكد لهم أن همساً ما يصدر، غير أن الوصول إليه مستحيل. أسمعه لأن لي أذنين كبيرتين، وكل ما أعرفه أنه يتجلّى لمن يريد، دون أوامر أو طقوس، يقول لهم. إن كنت قد سمعته، فعلينا اتباعك، يقول أحدهم، وينهض آخر ليقبّل يده، وتضيق الحلقة عليه ويسمعهم يرددون دون توقف، نحن معك، نحن نتبعك. لست بخيركم، يقول دون أن ينصت إليه أحد. أشعر بدوار، أي مسلك تسلكه صنيعاتي! ينفضون في جماعة، ويسيرون في جماعة، فيسأل أحدهم الآخر، إن كان يقول إن همساً ما يصدر كلمات، فلماذا لا نصدق أن الرجل المزيف يسمعه؟ ينظر إليه الآخر ويفكّر لحظة، ثم يقول، نحن اخترنا أن نصدق هذا الرجل، ونرتاح إلى ذلك. ثم يغيبون عن الأفق. يقترب رجل البرميل من بائعة اليانصيب، ويحكي لها مستغرباً ما دار في الجلسة. لا بأس يا حبيبي، فليكن ما يرغبون، إضافةً إلى أنك لا تطلب منهم شيئاً، تقول له باسمة، بعينين زائغتين.

أتجه صوب النهر فأراني أسبح، معي زوج أمي يعلّمني العوم، يمسكني من يديّ بينما أضرب الماء برجليّ. أظنني الآن في الرابعة، أستقبل الفرح بقلب مفتوح، وصدر منشرح. يرفعني الرجل على كتفيه ويغوص بي، فأنتفض، يرميني في الماء ويسحبني ضاحكاً، فأخاف. يحملني بين ذراعيه ونخرج، يجففني بمنشفته ويلبسني ثيابي أولاً. أسير بجانبه وأنا أثب، وأرى توأمي يأكل في طبق بمفرده، في مكان قريب من بيت أمي. يبدو مسكيناً، هكذا أراه من مكاني الآن، بينما من طفولتي لا أنتبه له كثيراً.

في البيت، أمي تعد الطعام، وجدتي تجلس على باب غرفتها، وأنا وزوج أمي، الذي أناديه بعمي، نجلس على الأريكة ننتظر. أمي حزينة، يبدو ذلك من حركاتها البطيئة، ووجهها الذابل، وظهرها الأحدب قليلاً. وجدتي صارت طاعنة في السن أكثر مما ينبغي. نتناول الطعام، ويدخل زوج أمي لينام قيلولته، وأنا أصنع بالصلصال أشكالاً، وجدتي تدير حواراً مع أمي. أريد أن أخبركِ فقط أن نهايتي اقتربت، تقول جدتي. تقترب منها أمي مفزوعة، لمَ تقولين ذلك؟ تسألها بتوتر. لأن كل شيء صار متشابهاً، الأيام صارت متكررة يا ابنتي، ووجوه الناس صارت وجهاً واحداً. وماذا يضيركِ في ذلك يا خالة؟ يضيرني أن هذا من علامات الموت، وإن لم يبد ذلك مقنعاً. الآن جاء الدور على أمي لتعانق جدتي، بينما يدخل أخي مغبّراً، بثياب يشبه طين الأرض.

أغمض عينيّ وأفتحهما على صوت صرخات. ساعة الحائط أمامي تشير للخامسة مساءً، وباب غرفة جدتي مفتوح. أراني أركض أنا وأخي وقد كبرنا قليلاً، فتعانقنا أمي وتخبرنا أن جدتي ماتت. أراني أبكي دون أن أفهم ما معني الموت، نفس السؤال الذي لا زلت أسأله دون معرفة إجابة. يأتي زوج أمي مفزوعاً من نومه، يخرجنا بقلب قوي إلى الصالة، وتبدأ مراسم الوداع. كيف ماتت جدتي وقت غروب الشمس؟ وكيف استمرت على وجه الحياة بعد رحيل أبي؟ لا أدري، فما أتذكره جيداً أنها ماتت ذات صباح، وأنها سبقتْ أبي في الرحيل. لا يمكنني الوثوق في ذاكرتي إذن. ثم أنني رأيت أسواراً بين أجزاء الجزيرة، ومع ذلك لم أصطدم بها ولا اصطدم بها أحد! أأكون قد بلغت العمر الذي فيه نرى ما نتخيله ونظنه

حقيقة؟ أم أنني أرى المستقبل وأظنه حاضراً؟

أخرج وأتجه إلى كوخي. أريد أن أرى العالم من هناك، من مكاني الأول. في الطريق أتطلع إلى الجزيرة التي تعج بالحركة، تختلط الكلمات والوجوه، تتقاطع الخطوات، تختلف الإيقاعات والملامح. تختفي الشمس. ومن بعيد، على بعد أكثر من ثلاثمائة متر تقريباً، أرى بنّاءين حول كوخي، فأركض. أراهم أحاطوه بسور بجواره لافتة تحمل عبارة «بيت النذور». أعبر من بابه لطرقة تؤدي بي إلى باب بيتي، أدفعه وأدخل لأرى كل شيء منثوراً، مبعثراً. وأوراقي موزعة على أيدي منحوتاتي، يقرأونها في صمت. أي جنون أصابهم! أسقطهم أرضاً بعنف لم أعتده في نفسي، وأجمع كتابتي وأرتبها، بينما أرى الرعب في عيونهم، وأخرج أخيراً مخلّفهم ورائي في أركان الكوخ منكمشين. بوسعي، أفكّر في ذلك وأنا في طريقي لعمق الجزيرة من الناحية الأخرى، أن أدافع عن كوخي، أن أطردهم منه، أن ألقنهم درساً لا ينسونه أبداً، غير أن فضولي، من ناحية، يأمرني أن أتحلى بالصبر، ومن ناحية أخرى لا أريد أن أتدخل في المصائر والاختيارات. في أقصى أقاصي الجزيرة، وفي أعلى تباتها، أصنع بيتي الجديد تحت جناح الليل والقمر، وأحفظ أوراقي هناك. فضيلة المكان الجديد أن الرؤية أرحب وأكثر اتساعاً، والمنحوتات أكثر وضوحاً. من بعيد، وكلما ابتعدنا تحقق ذلك، ندرك ما لا يمكن أن يُدرك في القرب، ونصبح أكثر حيادية وتسامحاً.

فضولي يدفعني نحو رجل القضيب، فأسير متعباً كمن يتسلق جبالاً

شاهقة. الصمت حلَّ على الجزيرة وصارت كأنها مهجورة، خاصةً مركزها. هناك، في الغرب، بيت الرجل الواسع مُضاء، والناس تتقابل في الخروج والدخول عند بوابة الحديقة، تتهامس أو تعبّر عن سعادتها بضحكات حذرة. ومن شرفته المرتفعة، يتطلع إليهم الرجل المغدور بعينين باكيتين، ونظرة مكسورة. ربما يتساءل، كيف بوسعه أن يمنح السعادة للآخرين دون أن يتمتع بها. أدخل بيته وأراه جالساً في صالة واسعة، وبجواره المقربين له، يواسونه. كيف تحزن لانصراف امرأة عنك وأنت من تركع تحت قدميك كل النساء؟ يقول له أحدهم مادحاً. لكن هذه المرأة ليست ككل النساء، وقلبي الذي أحبها لم يختر سواها، يقول الرجل بتكبر مجروح. فليكن الدواء إذن من نفس الداء، يقترح أحدهم. يؤيد آخر الاقتراح. يخرج رجل القضيب إلى الشرفة من جديد، ويشير بيده إلى امرأة واقفة بجوار باب الحديقة تعنّف رجلاً لسبب مجهول. فيهبط أحد المقربين ليناديها. تتناقش معه، ثم توافق بعد إلحاح من الرجل الواقف بجوارها، والذي يبدو وليها. المرأة الجميلة ترتجف أمام رجل القضيب، فيقترب منها ويلمح، دون أن أرى ذلك حقيقياً، أنها تشبه عروسة النهر. يعلن للحاضرين أنه سيتزوجها الآن، فتفرح كمن قدّم لها هدية ثمينة.

أعود إلى بيت أمي منهكاً، وأنام على أريكتي المفضلة بعد أن أدخل غرفتي. أراني نائماً على سرير وبجانبي أخي، في السرير المجاور. أستعد للنوم. أرى الغارات قد انتفضت واجتمعت في وسط الجزيرة، ومن اليمين أسهم موجهة إلى اليسار، ومن اليسار أسهم موجهة لليمين، ثم أرى الأسرى من الجانبين والمقاصل المقامة. ورجل البرميل ورجل القضيب

يتقاتلان، لكن ضربات السيوف لا تصل إلى أي منهما، بينما تطال مريديهم المتساقطين واحداً وراء الآخر. أسير وأركض وتهرب أنفاسي في الشهيق والزفير، أحاول فض التعارك دون طائل، وكلما ضربت أحدهم سقط على الأرض ونهض من جديد، فأنظر حولي لأرى أمي تتحرك في البيت كما الشبح، تدخل غرفتنا لتقبل جبينينا وتخرج في الصمت. تفتح الباب وتودّع كل شيء بنظرة حسرة، وزوج أمي يقف على باب غرفتيهما باكياً. وأنا هنا، أستقبل الوداعات، وأودّع المحبين. كيف يمكن أن تكون الحياة محض فراق متتابع، وكيف يمكن لقلوبنا أن تحتمل. أتابعها وهي سائرة في الجزيرة دون أن تعرف قبلتها، تقف لمدة دقيقة في مكانها، حائرة، ثم تقرر. تتجه إلى النهر، وتختفي.

اليوم الثالث

زوج أمي يتحرك في البيت كما اليتيم، وأنا أراقبه من أريكتي. يجلس على الأرض بعد تعب، بيدين فوق رأس كامرأة فقدت سندها للتو. لا تزال عيناه، رغم مرور ساعات، مسكونة ببقايا دموع مكتومة. أصحو أنا ومن بعدي أخي، ندور في البيت تائهين، نبكي ونحن نسأل عن أمنا. عندما أخبرنا زوج أمي برحيلها وقال إنها على سفر وستعود قريباً، انفجر أخي في البكاء بشكل هيستيري، حد أنه أثار شفقتي أكثر من غياب أمي ذاته. من أريكتي، يملؤني الاستغراب لأنني لم أكن أعلم أن أخي هكذا شديد الارتباط بأمي، التي كانت شديدة القسوة معه. بعدها أعانقه وأواسيه بكلمات عن عودتها القريبة، بينما زوج أمي يعانقنا معاً.

أخرج من البيت وأتطلع للزحام الشديد. كيف يحتمل العالم كل هذا الضجيج! أسير متحفظاً ومحتاطاً لئلا أصطدم بأحد، وأصل بعد كفاح طويل إلى بيتي الجديد فوق التبّة. ومن هناك، أكتشف أن الجزيرة صارت أكثر اتساعاً، شرقاً وغرباً، حد أنني لا يمكنني مراقبتها بالكامل. ألمح كوخي مليئاً بالناس الذين يلقون عملات في بئر تم صنعه، ويتلفظون بكلمات لا تصل بالتأكيد إلى أذنيّ. أجلس وأكتب من جديد، وأفكر في عروسة النهر. كم أشتاق إليها، وإلى الطفل حتى لو لم يكن ابني. الآن

يجب أن أعترف لنفسي بـأن عروسة النهر هي حبيبتي في الحياة الأولى، وأنني لم أخترعها من خيالي كما ظننتُ في البداية. ينبغي ألا أنسى أنني داخل اللعبة التي أنشأتها، وأنني أواصل فيها دون أي إرادة للتغيير، وربما دون قدرة، وربما اقتناعاً بأنها كانت الحياة الأفضل.

مع انتصاف النهار، أهبط من التبّة وآكل ثمرة تفاح. أقترب من مسكن رجل القضيب وأسمع صراخ رضيع. أدنو من محل الصوت وأرى امرأته تحمل رضيعها، وهو يجلس مع الزوار في غرفة جانبية. ولا وجود لعروسة النهر. أنتبه إلى أن الرضيع أنثى تحمل في أذنيها قرطين صغيرين، وأنتبه كذلك إلى أنها تشبهني. كيف تشبهني؟ وكيف يشبه ابني رجل القضيب؟ أتكون عروسة النهر محقة في أنني ورجل القضيب شبيهان؟ أتأملها لحظة في صمت، هي أيضاً تشبه رجل القضيب. الفزع يدفعني نحو رجل البرميل. أقطع المسافة الطويلة ركضاً. أصطدم بإحدي منحوتاتي دون أن أهتم. أتعرق وأمسح جبهتي بإبهامي. أتوقف دقيقة لألتقط أنفاسي. وأمام رجل البرميل أكتشف حقيقةً جديدة، أنه يشبه رجل القضيب، ويشبهني.

يتحدث مع مجموعة من الناس، ثم يدخل بيتاً جديداً له حديقة تشبه حديقة رجل القضيب. بائعة اليانصيب تصحبه دائماً كظله، وتبدو أكثر أناقة وراحة، كعلامتي ثراء. الآن أدرك ما يحدث في العالم. الأصل واحد والفروع متعددة. أواصل مسيرتي نحو بيت أمي، بينما تشتد الشمس فوق رأسي. أشعر بالإرهاق فأجلس تحت ظل شجرة، وبمجرد أن أتنفس بعمق ألمح عروسة النهر بجواري. متعبة جداً، وشفتاها جافتان. في

حجرها رضيعها، بإصبع في فمه. أنهض وأقطف ثمرة جوافة وأعطيها لها بعد أن أفركها. تنظر إليّ ممتنة، وتقضم قطعة صغيرة منها وتمضغها، وتعطي بقية الثمرة لرضيعها الذي يلعقها بلسانه. لماذا كل هذه الحيرة يا نحات؟ تسألني بعد دقائق من الصمت. يجب أن أعرف كل شيء، وها أنا قد بدأت في طريق المعرفة، أجيبها. تصمت وأصمت، وبداخلي رغبة في معانقتها. يبكي الرضيع، فتحمله وتنصرف في سكوت. وأنا أقرر مواصلة الطريق لبيت أمي.

أمام التعريشة القديمة، يجلس أخي وقد أوشك أن يودّع سن الطفولة، ويحيط به عدد من الفتيان في سنه، يتحدث إليهم بعنف، ويأمرهم بفعل أشياء لا أتبينها جيداً ولا أهتم. وفجأة تنهض صبية تشبه عروسة النهر، تتحدث معه، فيقبّلها أمام الجمع. هنا تحديداً أركّز في ملامح أخي، فأجده صورة من رجل القضيب.

في البيت، أرى زوج أمي يقف بجانبي وأنا فتى، ألبس ملابسي، ونخرج معاً ونسير حتى نصل إلى خشبة المسرح. هناك، أجلس على كرسي أمامي بجانبه، بينما أجلس أنا في الخلف وأنظر إليّ. أنبهر بالعرض المسرحي وأنا في الكرسي الخلفي بنفس درجة انبهاري به وأنا في الكرسي الأمامي، وأصفق بحدة. ورغم قلة الحضور، إلا أن زوج أمي كان سعيداً. بعدها نعود معاً إلى البيت، ونتناول عشاءنا ونحن نحكي عن العرض والممثلين، ويحدثني عن مناماتي التي كنت أحكيها له وأنا صغير. في لحظة ما، يخطر ببالي أن أخي ليس بالبيت، وأنه ليس على ما يرام. أنتفض وأبحث عنه

في غرفتنا فلا أجده، وأعثر على ورقة صغيرة مكتوب فيها: «هذا العالم متشابه حد الملل». عندما قرأها زوج أمي أصابه الصمت، وقال إنها لعنة الشبه التي لن تترك أحداً فينا. أفكّر، نحن من نخلق التشابه ثم نهرب منه، عجباً.

كيف يمر الزمن هنا؟ وكيف يتحرك في منطقة أسرع من أخرى؟ أبقى في النهاية مع زوج أمي، أجلس معه على الأريكة ونتبادل الحديث.أخبره أنني قررتُ أن أكون نحاتاً، فيبتسم لي، أعرف ذلك منذ كنت صغيراً جداً، يقول، ويطلعني أنه سيعد جزءاً من الحديقة لتكون ورشتي. أشاهد الآن جلستي معه وأعلم كم أحب هذا الرجل ولماذا. وأخيراً أراني وأنا أدخل غرفة نومي، فأطل عليّ وأرى الأرق على وجهي. ثم أعود لأريكتي وأنام.

اليوم الرابع

أصحو على صوت ضجيج عظيم في الجزيرة، وأجد الحياة قد صارت إلى ما يجب أن تصير إليه. أجد بائعة اليانصيب أولاً، بظهر أحدب، ترتدي ثياباً رثة، تبيع أوراق اليانصيب بإشارات من يدها، ويبدو واضحاً أنها خرساء. وأجد رجل البرميل يسكن في برميله، يرفع رأسه ليطل على العالم من تحت كرتونة تغطي رأسه، فألمح أذنيه الطويلتين قد اختفيتا، وصار بدونهما أصم. يطل ثم يعود لمسكنه المستدير، فيضع المارة قمامتهم في برميله دون أن ينتبهوا لوجوده بداخله من الأساس. وهناك، في الجزء الشرقي من الجزيرة، يختفي بيته الكبير بحديقته الرحبة.

أعود مذهولاً إلى وسط الجزيرة، فأرى خشبة المسرح لا تزال قائمة، وحولها يسكن الشباب الوسيمون ممشوقو القامة. أواصل سيري لأرى، بمحض صدفة، ودون أن أصدق عينيّ، رجل القضيب يركض بقضيب منتصب، ومن ورائه بعض الناس يضربونه، وبعض النسوة يتحرشن به. وفي الجزء الغربي من الجزيرة، لا أرى بيت الرجل ولا حديقته ولا مريديه.

أتجول في الجزيرة وأسمع الحكايات المتناثرة، وأعرف أن رجل القضيب بمريديه قد غاروا على جزء رجل البرميل، فقطعوا أذنيه وقصوا

لسان رفيقته، ثم هدموا بيته وتعاركوا مع مريديه، فما أن عادوا إلى جزئهم الغربي حتى جاءتهم غارات من الشرق، فهدمت البيوت وشردت العائلات، وظلوا يتقاتلون وتنزف الدماء إلى أن هلكوا، دون أن يصلوا لرقبة رجل القضيب، الذي بقى بقضيبه المنتصب مشرداً في الشوارع حتى عفوا عنه ونسوه.

أتوجه صوب مسكن عروسة النهر، فلا أجد المسكن ولا أعثر عليها. أبحث عنها في كل مكان، حتى أصل لبيتي فوق التبّة، غير أنها لم تكن هناك، ولا كانت أوراقي التي سجّلتُ فيها تاريخي في هذه الجزيرة. هكذا أقرر أن أنتهي من هذه الأوراق وأتركها في نفس المكان، فمن يبدأ في معرفة الحقيقة، عليه أن يتّمها.

أهبط من التبّة وأنتبه، لأول مرة وبشكل حقيقي، أن الجزيرة صارت غارقة في الدماء، وأن المقاصل تملأ جميع جوانبها. وفي لحظة ما، أصابتني لعنة الشبه التي أصابت عائلتي من قبل، فأقرر جمع كل متعلقاتي في حقيبة، والرحيل.

أتوجه سيراً إلى نفس الجانب النائي الذي كنت قد تركت فيه المركب الذي حملني إلى هنا، وأبدأ التجديف صوب جزيرة جديدة. مع غروب الشمس أصل لمقصدي، فأهبط بحاجياتي. وبعد أن أستريح قليلاً، أشرع في كتابة يومياتي من جديد.

هكذا رحل النحات عن الجزيرة قبل أن يرفع النقاب عن أسرار لم يطلّع عليها وبالتالي لم تضمها أسفاره.

فعروسة النهر ومن قبل رحيله كانت قد خرجت لأهل الجزيرة وأخبرتهم أن رجل القضيب لم يكن يوماً زوجها وأن الابن الذي تحمله على كتفها ليس ابناً له. فلمّا سألوها عن أبي الابن أجابتهم بأنه محتجب ولا يمكن رؤيته فقرروا من تلقاء أنفسهم أن يقتلوها ويقتلوا طفلها.

ثمة أوراق أخرى تتناول الحادثة بكثير من التضاد أو التفصيل، فورقة تقول إن إعلان عروسة النهر كان سبب الخلاف في الجزيرة وإن الحروب قامت منذ تلك اللحظة ولم تتوقف إلا بهلاكهم أجمعين. وتُفصّل بأن رجل القضيب من أمر بقتلها وابنها فأثار ذلك شفقة رجل البرميل ومؤيديه فنشبت المعارك تلو المعارك.

بينما تقول ورقة أخرى إن أسباب الشقاق كثيرة من بينها

قتل المرأة وطفلها، غير أن السبب الرئيسي كان المنافسة بين الجزء الشرقي والغربي، فكلما زاد المؤيدون في جانب زادت الضغينة في الجانب الآخر.

وتقول ورقة ثالثة ان عروسة النهر توجهتْ إلى رجل القضيب وكشفتْ أكاذيبه أمام القوم فقتلوها وابنها.

على أية حال اتفقتْ الأوراق على مقتل عروسة النهر وابنها دون أن يعرف النحات الحقيقة التي كان يبحث عنها والتي كان من الممكن أن يعرفها لو استمر في الجزيرة أياماً أخرى.. ومن يدري؟ فربما عرفها دون أن يشير إلى ذلك.

***

كانت هذه كل الأوراق التي عثرنا عليها في الجزيرة ويساورنا الشك أن أوراقاً أخرى قد فُقِدت لسوء الطالع إمّا عن عمد أو بالمصادفة وظننا أن النحّات قد كتب اليومين الخامس والسادس قبل رحيله.

وفي الجزيرة الجديدة عثرنا على أوراق أخرى سنعرض

مقتطفات منها لترتاح ضمائرنا غير أننا نعرف أنها تكرار يحمل في أعماقه دلالات سيلتقطها كل لبيب.

السفر الأول

اليوم الأول

وصلتُ إلى الجزيرة بواسطة قارب صغير بمجدافين، وضعتُ فيه ثياباً يليق بحياتي الجديدة التي أبحث عنها: برانس وجباب وعباءات، وألبسة وسراويل، ونعالاً مريحة. بعض الكتب والدفاتر والأوراق البيضاء، مع بعض الرسومات التي قد تصير في يوم ما منحوتات. كان شعرى الطويل مغبّراً وأشعث، وكذلك لحيتي التي اشتعلت بشعيرات بيضاء، وأثر رمال الصحراء، التي عبرتها لأصل إلى النهر، لا يزال في قدميّ وبين أصابعها.

أشد ما كنت أخافه ألا يحتمل القاربُ الجوالَ الكبير الذي يضم صلصالاً انتويتُ سلفاً أن أصنع منه تمثالاً لشيء لم أتبينه في البداية، وبعض أدواتي التي استخدمها في النحت كالأزميل والمطرقة. احتمل القارب ما أحضرته معي، ووصل إلى قبلتي خلال زمن لم أدركه. كانت الشمس برتقالية، تودّع العالم. وكانت الأسئلة التي تؤرقني بلا جواب.

أتجول بالجزيرة. رحبة بما يكفي. تشبه بستاناً، ومضاءة بقمر مكتمل. نصفها مزروع بشجرات ونخيل، ونصفها الآخر تراب بكر. أفكّر أولاً في أنني بحاجة إلى مسكن، كوخ مسقوف سيكون كافياً. أختار مكاناً في المركز، وأقيم من جريد النخل أربعة حوائط وسقفاً، ونافذة واحدة وباباً. أترك أشيائي بداخله وأخرج للعراء، فأستريح قليلاً على الأرض،

بين شجرات ونخلات لا أعرف من زرعها. أشم رائحة التراب وأشعر بحنين إليه، وأفكّر، لو كان لي أمنية واحدة أود تحقيقها، لوددت أن أشاهد نفسي حفنةً من التراب تمتزج بالماء(هل كان ماء بحر أم ماء نهر؟) ثم أُشيَّد تمثالاً كاملاً منصوب القامة تُنفخ فيه الروح، فيضخ القلبُ الدمَ لبقية الجسد، وترى العينان في الحال ويُثقَب السمع وتُشق الأنف ويبدأ المخ في إدراك ما يحدث. كم أريد أن أشاهد نفسي من خارجي، سائراً، نائماً، جالساً، مستغرقاً في صور تدور بذهني.

أفتح جوالي وأسحب منه أغطيةً أفرشها على الأرض، وأفكّر في صنع سرير عندما أستيقظ. أنتبه أيضاً إلى أنني صنعتُ إطاراً للباب وللنافذة دون أن أصنع لا باباً ولا نافذة. يبدو أنني سأعمل نجاراً أولاً، أقول وأبتسم. غير أنني، في هذه اللحظة تحديداً، يهاجمني النوم فأستسلم له.

أرى شوارع واسعةً جداً وخالية إلا من مقاصل وسلالم وبالوعات وشرفات، وبينما أسير وحدي من شارع لآخر، مرعوباً من المشهد الضبابي، تنشق الأرض فجأة ويخرج منها رجال بطونهم منتفخة ويسيرون على ظهورهم، رجال كثيرون حد أنهم يملؤون الشارع العريض الذي أتوقف فيه، ولا يتركون مساحة للمارة ولا حتى فوق الأرصفة. أتسمّر في مكاني وأفكر كيف يمكنني أن أخرج من هناك، فأتعلق على إفريز نافذة مخافة أن يخرج من تحت قدمي آخرون، فيظهر في الشرفات رجال ضخام الجثة، ينزلون بأقدامهم على البطون المنتفخة ويسيرون فوقها بخطوات عسكرية، فتنفجر بشكل متتابع، وتطرد مياهها حد أن الشارع يتحول إلى

بحيرة، وتقترب لتطولني. أتسلق الحائط لأصل إلى شرفة، ومن هناك أرى رقاباً معلقةً بالمقاصل، ورقاباً أخرى تطير بالسيوف. الخوف يملؤني حد أني أقرر الهرب، فأقفز في مياه البحيرة وأركض، وعندما أصل لشارع آخر أنتبه إلى أن قدميّ مكسيتان بالدماء، فأنظر خلفي لأجد البحيرة حمراء ولزجة. أفتح عينيّ لأجدني جالساً أمام الكوخ، فأعود للنوم من جديد.

اليوم الثاني

أفتح عينيّ على جدران من جريد النخل، والشمس تعبر إليّ من خلال فتحة النافذة. جسدي المسجى على الأرض يمنحني شعوراً بأنني أقف على حافة الصحو وخواء العالم. الفراغ وحده يشغل مخدعي، والصور المتتابعة تقتحمني في لحظاتي الأولى لاسترداد الحياة. أفكّر، وأنا أراقب الجزيرة من خلال إطار الباب، في أن اليوم الذي يحدث فيه الفراق ليس أهم يوم في تاريخه، بينما اليوم التالي هو بداية المأساة.

أتصور أنني أشرع في حياةٍ جديدة، أو ربما في موت من نوع خاص. أتحرّك من الكوخ كما الشبح، أسمع أصواتاً اختزنها الهواء، وتتردد في أذنيّ كلمات كانت تقال حتى أيام مضتْ. أجيب على سؤال معلّق تكاسلت ذات يوم في الرد عليه، وربما تقع على خدي قبلة أهملتها فظلت دين عليّ. والرائحة التي كنتُ أنفر منها، أشتاق الآن إليها. أتشممها في زجاجة ماء، في صفحات كتب، في صلصال، في منديل، في عصا، في قطعة ثوب. في زجاجة عطر لم يتبق منها إلا القليل فاخترت الاحتفاظ بها للأبد.

أقف على الضفة وأنظر في الماء. لا أرى صورتي، غير أنني أسمع

تلاطم القطرات. أي صورة يمكن أن أكون عليها الآن؟ أتحسس وجهي الذي أظنه متغضناً، وبين الخطوط يسير بشر شكّلوه مع خطوات الزمن. أتساءل وأنا أجلس أمام صفحة ماء مضطربة، كيف لا يكون لألم الإنسان عمر؟ كيف لا نبلغ سناً يكف فيه الألم عن أن يحاصرنا؟ أو نبلغه فيكون الألم على مسافة منا؟ أقطف ثمرة تفاح وآكلها. ربما تكون نفس الثمرة التي أكلها آدم وهبط بذنبها إلى الأرض. آكلها كاملةً، فالوقوف في المنتصف يخلّف الندم. ثمرة آدم المحرّمة أُحِلتْ لأولاده، مثلما حُرّم القتل على قابيل وأُبيح لنسله.

تنتصف الشمس السماء بينما أقطع فروع شجرة عريضة لأصنع منها باباً ونافذة لكوخي. بعدها أتجول في الجزيرة لأعرف حدودها فيصيبني التعب قبل أن أصل لنهايتها. أنزل إلى النهر وأسبح، أتخيل أنني بذلك أتخلص من كل ما أحمله على ظهري، رغم أنني أعرف أنني لا أريد التخلص من شيء. أتجفف تحت الشمس، وألجأ إلى كوخي. أسحب ورقات بيضاء وأرسم صوراً للطبيعة. وفي لحظة ما، أجمع بعض الطين وأصنع منه عصافير.

اليوم الثالث

أتوقّف أمام زقزقات عصافير مختبئة في أعشاشها(لم أشهدها إلا اليوم)، وأرى بعضاً منها ينتقل سريعاً من غصن إلى آخر. تمر بخاطري صورة من العالم الأول، كنت طفلاً شقياً يركض حافياً فوق رمال شاطيء، تسابق خطواته الأمواج المتعاركة، يستقبل الهواء برئتين مفتوحتين وقلب سليم، ينال منه يأس الوصول للمنتهى، فيحفر حفرة يكوّم فيها جسده الضئيل، أو يصنع بيتاً يلتمس فيه الدفء الرمزي، وفي الحالتين لا تتوقف الأمواج في لحظات نشوتها عن تحريك سكونه.

ترسل لي النخلة التي أرقد تحتها عدة بلحات، أفركها بيدي وآكلها شارداً. أفكّر أن الطبيعة أكرم مما نتخيل. أدخل كوخي، أتمدد على الأرض. وأعرف يقيناً أن الحياة في العالم الجديد سيسودها الملل لأجل غير معلوم.

اليوم الرابع

أشعر أنني تخليتُ عن كل شيء وصرتُ حراً، مولوداً جديداً يسطّر بيديه قدره. ربما ليس بوسعي أن أمحي ذكرياتي، بل ولا أود ذلك، لكن بيدي أن أكتب أيامي القادمة. أستغل أن الصباح مشمس فأنزل إلى النهر وأسبح. أصير سمكةً تخترق قطرات الماء بمرونة، وأعتليها بظهر مسترخ. أفكّر، أنا لم أصنع من قبل تمثالاً لسمكة ضخمة، وكأنني اكتفيتُ برسمها على ورقة في سنوات الطفولة البعيدة. أقرر أن تكون السمكة هي عمل اليوم، بل عدة سمكات. ليس حسناً أن نخلق كائناً منفرداً وأن نكتب له العزلة كمصير حتمي، حتى ولو كنا على يقين أننا، سواء أردنا ذلك أم حاربناه، سنموت وحيدين.

أجفف جسدي وأستمتع بشمس الصباح. وعند الظهيرة، أتحرك وأحضر عدداً من الألواح الخشبية، وأستقر على المكان الذي سيصير ورشتي من الآن. أختار عمق شرق الجزيرة تحديداً، وأحفر في التربة اللينة بفأس عثرت عليه بالصدفة، وأجمع المادة التي أصنع منها منحوتاتي.

اليوم الخامس

رأيتُ في منام الليلة السابقة كل الذين مروا بحياتي. لا أدري كيف استطاع محض حلم أن يلخّص أربعين عاماً في لقطات خاطفة. أبي يحمل حقيبةً على كتفه ويسير في طريق مضبب. أخي يجلس أمام مرآة ضخمة. أمي تركض عاريةً وحافيةً وتُنادي بأسماء أعرفها دون أن ينتبه لها العابرون. جدتي تطل على الشارع من نافذة. زوج أمي يمسك بيده طفلاً صغيراً كنته ويقف تحت خشبة مسرح. رفيقتي تقف على باب بيت قديم وتودّعني دون أن أنظر إليها. أجلس على ركبتيّ في أرض خالية وأعبيء التراب في أجولة. رجال معلقون في مقاصل. آخرون يمدون أيديهم إلى البحر ويستخرجون حيتاناً، ويرفعونها إلى الشمس ليشووها. أجراس كنائس ورنين أذان يتداخل ضجيجهما. استيقظ مرهقاً كأنني كنت أركض.

أجلس على حافة الجزيرة وأضع قدميّ في الماء. أنا الآن في البر والبحر معاً. قدماي همزة الوصل بين عالمين مختلفين. أي شيء يشبه القدمين في هذا الوضع إلا الذاكرة؟

أقطف ثمرة تفاح زرعها غيري لآكلها أنا(هذا المكان يجمع ثمرات

الصيف والشتاء بشكل ملفت، كأنه لا يؤمن بتعاقب الفصول). أفكّر أثناء ذلك أن أشرع في جمع التراب من جديد.. وأن أختبره في المكان الذي اخترته لأصنع تماثيلي، من الذاكرة. تمثالي الأول سيكون لأمي، والثاني لأبي، والثالث لزوج أمي، ثم أصنع تماثيل أخرى لأناس لفتوا انتباهي في الحياة الأولى: رجل القضيب ورجل البرميل وبائعة اليانصيب. سأبدأ بالراحلين منذ زمن طويل لأستعيدهم بيدي، واستحضرهم بذاكرتي. بعدها، أصنع من تركتهم حديثاً، هؤلاء العابرون الذين تركوا عباراتهم في أذنيّ.

لا ينبغي أن تكون تماثيلي صورة طبق الأصل من الحقيقة. ما هي الحقيقة في واقع الأمر؟ ستكون ما تركوه فيّ من أثر. ستختلف الأحجام بحسب الذكرى. وسألحق بكل تمثال حكايته.. أثبّتها تحت قاعدته في أوراق مكتوبة بخط واضح. أعلم أنه من دواعي الغرابة أن أصنع للآخرين خلوداً دون أن أصنعه لنفسي. سيكون خالقُ التماثيل الوحيدَ بلا تمثال.

اليوم السادس

أشكّلُ تمثالَ أمي أولاً، بيد ثابتة وقلبٍ مرتجف. أخلط مع الطين ذكريات تعتليها ضحكات نادرة وشرود دائمٍ. أشق بخجل الثقبَ الذي خرجتُ منه للعالم، وأكوّر النهد الذي أرضعني. أصنع جسداً متماسكاً ومنتصباً. أجعل أمي في أوج جمالها. شابة عشرينية كما يليق بها. أنزع عن وجهها خطين ظهرا حول أنفها في صورتها الأخيرة. لأمي نظرة زرقاء، خاصة، كأنها تستشرف المستقبل أو تنظر إلى العدم. رموش تشبه أبواب مدينة مخترقة. حاجبان سوداوان، متصلان، طويلان فلا يتناسبان مع عمرها القصير. وأنف مستقيم، صغير، ينظر لأسفل في حياء فيداري فتحتيه. المسافة بين الفم والأنف ضيقة، غير أنها مرسومة بعناية، والشفة العليا قصيرة. طابع الحسن في ذقنها يمنحها ريفية، رغم أنها لم تر إلا المدينة. بين الأذن والأنف أرض مستوية، بها نتوء مستدير. ضفيرتها الوحيدة تنام على نهدها الأيمن.

هذه إذن كل الأوراق التي عثرنا عليها واجتهدنا في ترتيبها وتبسيط صياغتها لتعم الفائدة وينعم بمعرفة محتواها كل ذات وقاص. لكننا في النهاية لسنا على يقين تام من أنها كل الأوراق التي كُتِبتْ ولا كل الأحداث التي جرتْ غير أن ما نأمله في نهاية المطاف أن يُشكر سعيُنا ويُرفع ذكرُنا وأن يُضاف هذا الجهد إلى ميزان حسناتنا.

وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ĎČčĎ ƧɦĂķŧĐ ĎĔ
ΙƧŅǵΙ!ƒ

